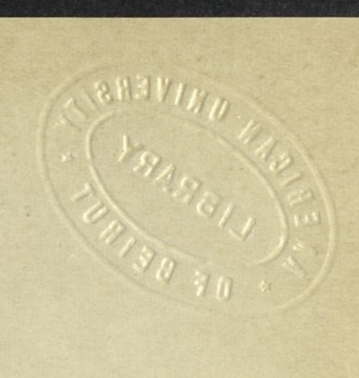
بثينة توفيق
بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية

# خديجة أم المؤمنين

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



الى أمى .

# مقدمة

من حسن الطالع أن يكون انتاجى الأدبى الأول عن السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها، وهى التى عاشرت النبى صلوات الله عليه، الشطر الأكبر من حياته، وكانت أول من لبى داعى الاسلام من الرجال والنساء جميعاً. وقد شاركته جهاده فى إعلاء كلمة الحق وإزهاق الباطل، وكان له منها الولد دون غيرها من أمهات المؤمنين.

وقد التقى فى هذا الكتاب عناء المؤرخة فى تتبع الروايات وتحقيقها والموازنة بينها والانتخاب منها مع عاطفة المؤمنة الصادقة التى لا تجوز عليها تخرصات المبشرين وأساليب المستشرقين، وحاولت جهدي بعد هذا أن أرسم صورة حية ناطقة للحياة العامة والخاصة، وللأشخاص الذين شاركوا فى تلك الحياة المثالية العظيمة.

ومن المؤسف أن زميلاتي من الجامعيات وغيرهن من المثقفات يعشن على الزاد الذى يأتيهن أغلبه عبر البحر المحيط،

وفيهن من ترغب عن لغتها القومية ، واذا انصرفت اليها فانما تلقى بالها كله الى المنقول من تلفيقات القصص وأحاديث المحترفين الفارغين . كما عكفت أقلام الموهوبات — إلا فى القليل النادر — على ما كان ينبغى أن يتركه للجنس الآخر من الاحتفال بالشهرة دون العظمة ، وعدم التفريق بين الطرافة والشذوذ حتى أصبح انتاجهن الأدبى كله مقصوراً أو يكاد ، على التسلية العابرة وتزجية الفراغ الطويل .

ولا أريد أن أتملق نفسى فأزعم أن هذا الكتاب يصلح للثقافة العامة بما حواه من الأخبار الصادقة والروايات المحمصة ، صلاحيته للقراءة فى قاعات الدرس من معاهد الفتيات التى لا يكاد يوجد فيها كتاب واحد من تأليف امرأة ، أو أزعم أنه يجمع بين الفائدة الراقية والمتاع الرفيع ، وحسبه أنه عن أعطر سيرة بين نساء العالمين .

وهأنذا أرفعه إلى اخوانى المثقفات ، ومن يدرى فربما دفعنى تشجيعهن الى المضى فى هذا السبيل

القاهرة فى ٥ يونية ١٩٤٨

بثينة توفيق
بالمعهد العالى للخدمة الاجتماعية

# ١

فى ربع من أكبر رباع مكة ، وبجوار السقيَّة البئر المشهورة ، كانت تقوم دار رحبة ، متسعة الجنبات ، سامقة البناء ، يدل مظهرها وموقعها من سائر الدور والبنى المقامة حولها ، على أن صاحبها خويلد رئيس فى قومه ، يكثر الوافدون عليه من أشراف قريش وساداتها ، وينتقل بين أرجاء الدار إماء وعبيد ، تشير كثرتهم إلى ثراء صاحب الدار وسعة رزقه .

عاش خويلد فى هذه الدار ، وكان شيخاً عركته التجارب ، وقور الطلعة ، في حديثه وثوق واتزان ، مع زوجه فاطمة ، وهى امرأة لما تتجاوز الكهولة ، على محياها مسحة من جمال ، ويقال إنها كانت فى صباها من أجمل بنات قريش ، عذبة السمر لا يفرغ لها حديث ، ومع بنيه تتفاوت أسنانهم بين الصبا واليفاع ، يغلب على وجوههم بشر فيه أثارة من جلد وحزم .

هذه الدار على كثرة من فيها وزحمة الملمين بها ، لا تسمع فيها صخباً ، ولا تحس بها اضطراباً ، فالأبناء يمزحون ويمرحون ،

والعبيد يروحون ويجيئون فى حركة دائبة ، كل عمل بقدر وكل خطوة بنظام

وكان خويلد يقص على بنيه مآثر أجداده ، كان يروى لهم أن قُصيّا جده الأكبر ، هو الذى جمع ما تفرق من أمر قريش في مكة حتى صارت اليه مقاليدها جميعاً ، فأصبح يقوم على بيت الله ويسقى حجاجه ، ويتقاضى قريشاً فى كل موسم من أموالها خرجا يصنع به طعاماً يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وداره دار الندوة لا تقضى قريش أمراً من أمورها إلا فيها .

ويشرح لهم كيف شَرُفَ جده عبد العزى وأخوه عبد مناف فى حياة أبيهما قصىّ ، وكيف أن قُصيّا لما كبر ورق عظمه ، ورأى عبد الدار بكره أقل شأناً من أخويه ، أقسم ألا يدخل رجل الكعبة إلا وعبد الدار يفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حرب إلا بيده ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايته ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً الا من طعامه ، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها الا فى داره . وكان قصىّ شديد الاعتزاز بسلطانه ورأيه ، لا يخالف فى أمر يصدره ، ولا يرد عليه شىء يصنعه ، فأعطى ابنه عبد الدار الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ودار الندوة .

وروى لهم أنه لما هلك قصىّ نفس عبد مناف على أخيه عبد الدار ما انتهى اليه من شرف وجاه ، وظلت الحفيظة فى أبنائهما ، وأجمع بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار مما كان قصى قد جعله له ، فتفرقت عند ذلك قريش ، ولم يكن بنو عبد العزى يطمعون فى شىء ولكنهم انحازوا الى أبناء عمهم عبد مناف ، ولما نفر هؤلاء وأولئك للحرب وشد بعض القبائل ببعض ، عبئت بنو عبد العزى لبنى عبد الدار ، وبينا الناس على ذلك يجمعون أمرهم على القتال إذ تداعوا الى الصلح على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وثبت كل قبيل مع من حالف ، وظل بنو عبد العزى مع بنى عبد مناف .

وهكذا كان الأب يذكر أبناءه دائما بشرف نسبهم وكريم عنصرهم ، فيزيدهم بذلك اعتزازاً بأنفسهم وعشيرتهم ويدفعهم الى الترفع عما يقترفه السواد ، ويبعث فيهم الطموح الى مكان آبائهم وأجدادهم .

وكان خويلد يجتمع مع أخويه نوفل وعمرو ، ودار كل منهما قريبة ، فيصبحون أو يغبقون ، ويسمرون ويجدّون ، فيخرجون

لبعض شئون قريش العامة ، ذلك لأنهم رؤوس بنى أسـد ابن عبد العزى ومقامهم من قريش بل ومقامهم من سائر العرب كبير . فهم لا يقيمون على ضيم ، ولا يحتملون أن يقيم أحد من جيرانهم أو من غيرهم على ضيم ، يظلون معه على من ضامه حتى يرد الحق عليه .

وقد يسافر خويلد فى عيرانه للتجارة ، ولكن الدار تظل كعهدها ، دائبة الحركة دائبة النشاط .

ويجتمع أبناؤه مع أبناء عمومتهم والفتيان من بنى أسد ، فيكون لهم ما للشباب من مجلس وحديث ، وقد يتبارون فى عدْو أو ركوب ولكنهم كانوا مع هذا كله يهزلون ولا يهذرون ويأخذون من المزاح بالقدر الذى يتيحه لهم ما جبلوا عليه من قوة وحزم .

وكان أشدهم مراساً وأقواهم شكيمة ، نوفل بن خويلد ! كان صلب العود ، عابس الوجه قلما يفتر ثغره عن ابتسام ، عنيداً يطلب الشىء لا يرجع عنه أو يهلك دونه ، وعرف فيه اخوته وأبناء عمومته خلائقه ، فأسرّوا إنكارها عليه ، وكثيراً ما أخلوا بينهم وبينه ، وكثيراً ما عاظلهم وعاظلوه ، وكان اذا

خاصم أحدهم لج فى خصومته ، لا تنبسط نفسه له ولو اجتمعت عليه العشيرة . وكم من مرة أراده أبوه على أن يبسط جناحه للناس ، فما أذعن ، حتى يغضب عليه ، وكان أعمامه يشبّهونه فى صلابته وعناده بجده الأكبر قصى ، وإن أعوزه حجاه ورشاده .

كان الفتيان اذا اجتمعوا افتقدوا واحداً منهم هو ورقة ابن عمهم نوفل ، كان أسنّ منهم ، أدنى الى الصمت منه الى الكلام ، لا يوغل فى سمر ، ولا يسرف فى لهو ، ولا يشترك فى معاظلة ، يغلب عليه التعقل ، ويسكن اليه من يجيش فى صدره هم يقض مضجعه ، اذا استنصح أخلص وأتى بالرأى الثاقب الحكيم ، لا يضايق القوم منه إلا ارتيابه فى آلهتهم ، ولم يكن يجرؤ على ذلك غيره .

وكانت نساء العشيرة تجتمع الى فاطمة زوج خويلد ، لا يلتمس عندها تزجية الفراغ فحسب ، بل كن يستشرنها فى أمورهن ويستعنها فى حياتهن .

## ٢

شبت خديجة وقد أخذت عن أمها فاطمة صباحة الوجه ، ووضوح القسمات ، وعذب الحديث ، وحب الخير للناس . وعن أبيها خويلد أناته وحزمه . وكان الأب يحس هذا ويعتز به فى وقت توأد البنات فيه ، وكان الأخوة يعتمدون عليها فى قضاء حوائجهم من الدار ، وكان الاماء والعبيد ، يحبونها لتلطفها معهم وعطفها عليهم .

وتمنى كل فتى فى قريش أن تكون زوجه وربة بيته وأم عياله ، ولكن خويلد كان يتغالى فى صداق ابنته إعزازاً لها ، أن كان يشعر بجمالها ورضى أخلاقها .

يرى تنافس سراة قريش وأشرافها على طلب يدها ، فيوازن بينهم ليختار أحسنهم خلقا ومالا ونسبا ، وكان ابن عمها ورقة يود أن يتزوج منها ، وهو يعلم أنها تجله وتحترم رأيه . ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا . وتريث الأب كعادته فيما يواجه من أموره ،

ثم أجمع أمره وزفها إلى أبي هالة بن زرارة التميمى ، وكان رجلا ناضجا غير جهم ، جوادا فى غير سرف ، حسدها عليه بنات قريش لسماحته وغناه ، وأنجبت له ولدا فقر به عينا لأنه سيحفظ اسمه وجاهه . ثم أنجبت له آخر فازداد به فرحا وبزوجه — «أم البنين» تعلقا وكلفا ، وازدادت بنات قريش لخديجة حسدا ، وسميا الولدين . . هاله وهندا . . على عادة العرب يضعون للذكور أحيانا أسماء الاناث ، وقاية لهما من شر حاسد إذا حسد .

وعرفت أم هند للتميمى قدره . فكانت تسهر عليه ، وتصفيه ودها ، وتملأ داره بشراً وأنسا ، وعرفت حق ولديها فكانت ترعاهما وتغمرهما حبا وعطفا .

ولكن هناءها لم يدم ، فقضى زوجها ولما تزل فى ريعان شبابها ، مات ولما يشب طفلاها عن الطوق ، فتبدل أمنها خوفا وجزعا ، لا يخفف منهما ما ترك من ثروة طائلة ومال عريض .

وأقبل خويلد على ابنته ، وقد غلبه الحزن يواسيها ، ويرفه عنها ، ويطلب لها الصبر الجميل ، فأذعنت أم هند للقدر ، ورضيت بما قسم لها ، ولم تحد بصرها وقد تأيمت ، وتيتم طفلاها إلى من حولها من بنات ، وأكثرهن ، أقل منها مالا وجمالا ،

ينعمن فى بيوتهن ومع بعولتهن . وانصرفت جلدة صابرة إلى تربية ولديها وتدبير مالها ، ولم تزدها مسحة الحزن التى ارتسمت على وجهها إلا جمالا على جمالها .

ولـكن ذكرى أبى هالة كانت تعاودها بين حين وحين تثير كوامنها وتؤرق جفنها ، وانها لترى ولديها وقد حرما عطف الأب ورعايته . ولولا ما جبلت عليه من حزم وجلد لغلبها الهم وسود صفحة الدنيا فى وجهها .

عاد فتيان قومها كل يريدها لنفسه . وأخذ اقبالهم عليها يتزايد يوما بعد يوم ، يشجعهم على ذلك ، غير شبابها ووسامتها ، قوة بدأت تظهر فى شخصيتها ، ثم وفرة فى مالها . . كيف تفكر فى الزواج وهى لا تزال تذكر أبا هالة ؟ وكيف تفكر فى الزواج وولداها لا يزالان فى حاجة إلى كل اهتمامها ورعايتها ؟ . .

بيد أن أباها وعمها عمرو بن أسد كانا يلحان عليها في أن تعيش فى كنف رجل يحميها ، أن كان أبوها وعمها شيخين هامة اليوم أو غد ، وهاهم فتيان مكة يطلبون يدها فهلّا اختارت منهم السيد الجواد قبل أن يذوي جمالها ، ويولى شبابها ويذهب مالها .

ورضيت خديجة بعـد لأى فزوجت من فتى من سراة

مخزوم وأجوادها ، هو عتيق بن عائذ . فأعطته كل ماتستطيع زوجة برة أن تعطيه لزوجها وولدت له طفلة سميت .. هندا .. ولـكن حظها معه كان كحظها مع سلفه ، فهلك ، وكان لها ولطفلتها من ماله نصيب غير قليل .

اشتد ألمها وتضاعف حزنها . . . وانصرفت بكل نفسها بعد هاتين الصدمتين إلى تربية أبنائها الثلاثة ، وإلى القيام على مالها بمعونة أبيها وبعض ذوى ثقتها ، تنشد فى ذلك العزاء والسلوى .

ومرض أبوها الشيخ فقلقت ، ثم مات فجزعت ، فقدته أحوج ما تكون اليه ، فقدت فيه الأب والزوج معا ، فقدت فيه الحنو والعطف والاخلاص جميعا ، فقدت من كان يلى أمرها ويدبر مالها ، ويشرف على تجارتها ، فاضطرت أن تستأجر الرجال في أعمالها ، وتضاربهم بشيء تجعله لهم . وكانت فطنه ، حسنة القيام على المال ، فاتسعت تجارتها وتضاعفت ثروتها .

وتكاثر طلاب يدها من أعيان قريش ووجوهها ، فيهم صاحب الحسب العريق ، وفيهم غض الشباب ، فأعرضت عن أولئك وهؤلاء ، لقد طرحت فكرة الزواج عن مخيلتها .

أقبلت خديجة وقد صهرتها هذه الأحداث على تربية أبنائها وتنمية ثروتها . تنسى فى ذلك نفسها وتشغل جل وقتها . فاستعادت هدوءها ، وظلت على الرغم من هذه المصائب نضرة العود ، ريانة الشباب ، تحف بها وبأبنائها مظاهر العز والرفاء .

٣

خرج أبو طالب فى ركب من قريش الى الشام تاجراً ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير تشبث به ابن أخيه محمد ، فضمه وخاف عليه وعثاء السفر ووحشة الصحراء ، وطول الطريق ، ولكن الصبى تعلق بالركب ، ولما يكن قد ناهز الثانية عشرة ، فرق له عمه أبو طالب واصطحبه معه وهو يقول « لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبداً » .

ولما نزل الركب بُصرى من أرض الشام التقى بهم الراهب بحيرا ، وكان ذا علم من أهل النصرانية ، وكثيراً ما مروا به قبل ذلك ، فلم يكلمهم ولم يعرض لهم . ولكنه فى هذا العام احتفل بهم ، وصنع لهم طعاماً كثيراً . .

ترى لماذا؟ . . . لأنه رأى من صومعته صبياً تظله غمامة دون سائر القوم .

وان الركب ليقبل وينزل فى ظل شجرة قريبة منه ، واذا به يرى الغمامة وقد أظلت الشجرة وتهصرت أغصانها على هذا الصبى ، حتى استظل تحتها ،فما كان منه إلا أن نزل من صومعته ثم أرسل اليهم ، ودعاهم جميعا . وأخذ يلحظ الصبى محمداً لحظاً شديداً ويتفرس فيه ، وينظر الى أشياء من جسده . حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام اليه يسأله عن حاله فى نومه ويقظته فجعل الصبى يخبره فيجدها الراهب موافقة لما عنده فى الكتب من صفته .

ولما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى . .

قال : ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال : فانه ابن أخي .

قال : فما فعل أبوه ؟ . . قال : مات وأمه حبلى به . .

قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً . فانه

كائن له شأن عظيم ، فأسرع به الى بلاده .

فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة حين قرب من تجارته بأرض الشام .

رأى محمد فى هذه الرحلة فسحة الصحراء المهوبة والنجوم الزهر المتلألئة ، والسماء الصافية الأديم التى قلما ترمد لها عين ، وشاهد جنات الشام بأشجارها الوارفة الباسقة ، تفوق ما سمع عن جنات الطائف ونخيلاتها ، وشاهد بأرض الشام كذلك أحبار الروم وقساوستهم . وكان غلاماً ذكياً فطناً دقيق الملاحظة ، فأخذ ينظر الى ما حوله ومن حوله نظرة المشوق الى المعرفة ، الراغب في استكناه المجهول .

عاد أبو طالب الى مكة ، وشرع يحسب ما أخذ وما أعطى من تجارته ، فاذا النفقة كثيرة ، واذا الربح قليل ، فقنع بحظه ، ولم يفكر فى الرحلة مرة أخرى ، وأقام فى مكة يكفل بماله القليل أولاده الكثيرين ، وظل محمد معه يقوم من الأمر بما يقوم به من هم فى مثل سنه ، يرعى غنم أهله ويرعى غنم أهل مكة .

وكان اذا فرغ من رعيه وجاءت الأشهر الحرم ، خرج وأهله الى الأسواق ، الى عكاظ ومجنّه ، وذي المجاز ، يستمع الى الشعراء

فى غزلهم وفخرهم ، والى الخطباء تستوقفه بلاغتهم ، ويستمع الى أهل الكتاب يعيبون على أهل مكة وثنيتهم ، ويدعونهم إلى ما يعتقدونه الحق ..

كان الفتى يستمع إلى أقوال أولئك وهؤلاء وهو لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع . ومن يرفض ومن يتّبع .

ونأى محمد عن الدنس ، ولم ينغمس فيما ينغمس فيه لداته من لهو ، وصان نفسه وطهرها من كل عيب ، ولم يعرف بين قومه إلا بالأمين ، لما شاهدوه من طهارته وصدق حديثه وأمانته .

وقد روى عن نفسه « قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب . . فقال : افعل . .

فخرجت أريد ذلك حتى اذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير . . . فجلست أنظر اليهم فضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى الا مس الشمس . قال : فجئت صاحبى وأخبرته الخبر . . . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك فقال : افعل . فخرجت ، فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت تلك الليلة ، فجلست أنظر ، فضرب الله

على أذني ، فوالله ما أيقظني الا مس الشمس . فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر . ثم ما هممت بعدها بسوء أبداً . »

ولما هاجت بين كنانة وقيس عيلان ، حرب الفجار ، وقد سميت كذلك لأنها نشبت في الأشهر الحرم ، حضر محمد بعض أيامها مع أعمامه ، وكان قد أصبح يافعـا ، وأخذ ينبل عليهـم ، ويجمع السهام لهم ، وما كادت تنتهي ، وقد استغرقت أربعة أعوام حتى كان قد ثقف الحرب ، ومارس القتال ، وعرف تعبئة الصفوف ، والتقاء الجموع .

في هذه الحرب قتل حزام بن خويلد أخو خديجة ، وحضرها معه ابنه حكيم ، وهو صديق لمحمد يحبه ويوده ، وان كان يكبره بخمس سنين .

وعند منصرف قريش من الفجار ، تداعت الى حلف ، لما شعرت به من تفرق الكلمة وحرص كل فريق على أن يكون صاحب الأمر ، مما أطمع فيها العرب ... فاجتمعوا في دار عبدالله ابن جدعان ، وكان محمد معهم في العشرين من عمره ، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته .

أخذ القوم يتحدثون فى مكة عن محمد وعن أمانته وصدق حديثه ، وعن بعده عن كل ما يمس الشرف والرجولة ، وعن رأيه الناضج على حداثة سنه ، وعزوفه عن ضجيج الحياة وزخرفها ، وعبث الشباب وملاهيه ، ويتحدثون عن نبوءة الراهب ويرون مصداقها أمام أعينهم ، ويتنبأون بما سيكون له من شأن عظيم .

٤

واشتد الأمر على أبى طالب فقال لابن أخيه محمد : أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وقد بلغنى أن خديجة بنت خويلد استأجرت فلاناً ببكرين ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك أن أكلمها ؟ . .

قال محمد : ما أحببت .

ولم يكن محمد راغباً فى الغنى ، ولو ترك الأمر لنفسه ، لقنع بما هو فيه ، ولكنه آثر أن يفرج كربة عمه ، وأن يخفف من ضائقته ، فاستجاب اليه .

وخرج أبو طالب الى خديجة وقال لها : هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمداً ؟ فقد بلغنى أنك استأجرت فلاناً ببكرين ،

ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أبكار . فقالت وقد بلغها ما تتحدث به قريش كلها عن فضله وأمانته : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب . .

عاد العم لابن أخيه يذكر له الأمر ويقول له :

هذا رزق ساقه الله اليك .

ذهب محمد الى خديجة ، . لم يرها قبل ذلك ولم تره، ولكنه سمع بجمالها ومالها ، كما سمعت هى بشمائله الغر ، وحديثه العذب . فلما التقت به ، رأت أمامها شاباً مشرق الطلعة، وضاح الجبين ، واسع العينين أدعجهما ، فى نظرته سلطان الآمر الذى يخضع الناس لأمره .

ورآها هو ، فوق ما تحدث الناس جمالا ورقه ، فأعجب كل منهما بالآخر ، وارتاح اليه . . .

وعرضت عليه أن يخرج فى عيرانها الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار . وانتدبت غلامها ميسرة لصحبته وقضاء حوائجه .

خرج محمد بالعير ، وجعل أعمامه يوصون به أهلها . خرج الى الصحراء يطويها فى طريقه الى الشام ، ومرّ بالبقاع التى مرّ

بها مع عمه أبى طالب فأحيت فى نفسه ذكريات تلك الرحلة .

كانت قريبة الشبه بها فما كاد ينزل ببصرى من أرض الشام حتى لقى فيها راهباً آخر أطلع رأسه الى ميسرة وقال له : من هـذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

فقال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى .

واستطاع محمد بأمانته ، وحسن تصريفه أن يتجر بأموال خديجة ، فيربح لها أكثر مما ربح غيره ، وكان ميسرة اذا كانت الهاجرة ، واشتد الحر ، يرى ملكين يظلان محمداً من الشمس وهو يسير على بعيره . ولما آن له ولميسرة أن يعودا ابتاع لخديجة من تجارة الشام ، كل ما رغبت اليه أن يأتيها به .

وانطلقا حتى دخلا مكة فى الظهيرة ، ورأت خديجة محمداً ، وكانت فى عليّة لها ، فنزلت حين دخل دارها واستقبلته .

أخذ يقص عليها أنباء رحلته وهى مأخوذة بحديثه الساحر ، مغتبطة بما ساقه الله على يديه من ربح سابغ ، ورزق وفير .

وأقبل ميسرة من بعده : فحكى لسيدته ما شاهده من رقة صاحبه ، ونبل أخلاقه ، وقص عليهـــا ما سمعه من الراهب

نسطور، وما كان يراه من هذين الملكين اللذين يظلان محمداً وقت الهاجرة..

***

أخذت فكرة الزواج تداعبها بين حين وحين، وهى التى ردت من قبل أيدى أعظم فتيان قريش شرفاً ونسباً، وهى التى حزمت أمرها على تنمية ثروتها وتربية أولادها بعد وفاة زوجها.. وكيف تفكر فى محمد خاصة وهى تكبره بسنين..

تحدثت فى ذلك الى صديقتها نفيسة بنت منية، ولم تكن تخفى عليها أمراً من أمورها أو خلجة من خلجاتها، وأعادت عليها ما سمعت من محمد ومن غلامها ميسرة... وما وجدت من حبه واحترامه. وقصت عليها حلماً قديماً، استحيت أن تذكره فى وقته، فقد كانت نائمة فى مضجعها، اذ هبت من نومها مضطربة أثر حلم رأته.. رأت شمساً عظيمة تهبط الى دارها من سماء مكة. فيغمر ضوؤها ما يحيط به من أماكن وبقاع... وأخبرتها أنها أسرعت الى ابن عمها « ورقة » وقد أصبح حبراً عالماً بتأويل الأحلام وتعبير الرؤيا، وما كادت تفضي اليه برؤياها حتى استبشر وقال:

ستتزوجين ياخديجة ، وهذه الأنوار علامة على مجيء خاتم النبيين ، ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه!

وقالت لصديقتها إنها إنما كتمت هذا الحلم عن كل انسان ، لأنها كتمته فى الواقع عن نفسها أيضا ، وقد استبعدت تحقيقه ، ولم تكن ليلة رأته تفكر فى زواج .

ثم قصت عليها حادثا آخر : وهو أنه بينا نساء أهل مكة يجتمعن فى عيد لهن ، منذ أمد ليس بالقريب ! إذ تمثل لهن رجل ، أخذ يقترب منهن رويداً رويداً ، وينادى بأعلى صوته : يا نساء مكة ، إنه سيكون فى بلدكن نبى ، فمن استطاعت منكن أن تكون زوجا له فلتفعل . وأن النساء كذبنه وحصبنه . أما هي فقد ذكرت حلمها السابق ، وأتت على قوله ، ولم تعرض له .

ورأت نفيسة ، ما عليه صديقتها ، وأحست ما يجيش به في صدرها ، وأدركت أنها تود لو يتاح لها أن تتزوج من محمد . وحدثتها فى ذلك ، فصح عندها ما هجست به ، وفكرت فيه . فاتفقت الصديقتان على أن تسفر نفيسة دسيساً الى محمد . ففعلت وقالت له : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما بيدى ما أتزوج به .

قالت : فان كفيت ذلك ، ودعيت الى المال والجمال والشرف والكفاءة . . ألا تجيب ؟ . .

قال : فمن هى ؟ . . قالت : خديجة . . . .

قال : كيف لى بذلك ؟ . . قالت : علىّ ذلك . .

وكان محمد قد اطمأن الى خديجة ، وأعجب بجمالها ، وقوة شخصيتها ، وما فى خلقها من حزم وجلد ، ولم تكن نفسه تحدثه قبل هذا بالزواج منها لما رآه من ردها أشراف قريش وأغنياءها .

وذهبت نفيسة تبشر خديجة بقبول محمد . فحددت موعد الزواج وأرسلت الى عمها عمرو بن أسد ، وكان يومئذ شيخاً كبيراً ، لم يبق لأسد من صلبه غيره ، ولم يكن له ولد واتخذ خديجة له بنتا . أخبرته برغبتها فى الزواج من محمد

فقال : هذا البضع لا يجدع أنفه .

ودخل محمد فى عمومته ، وأصدقها فيما يقال عشرين بكره . ولم يكن أحب الى الأسرتين من هذه المصاهرة . فمحمد لا يوزن برجل الا رجح عليه شرفا ونبلا . وأهله حضنة البيت العتيق وسواس حرمه . وخديجه أكثر نساء قريش مالا وشرفا .

وأهلها من ســادة العرب وقادتها . والجميع يذكرون أن « عبد العزى » كان دائما مع « عبد مناف » وأن « بنى عبد العزى » كانوا دائما مع « بنى عبد مناف » يحالفون من حالفوا ، ويخاصمون من خاصموا ، ولعل ما كان بينهما من حلف ، وما مر عليهما معا من أحداث ، وما شاهدا من مشاهد كان بشيرا بهذه المصاهرة ، وذلك الزواج .

## ٥

وانتقل محمد إلى دار خديجة ، وهى رحبـة اذا قيست إلى غيرها ، كثيرة الغرف متسعتها ، فوقها عليـة كانت خديجة تستروح بالجلوس فيها ، وهى التى رأت منها قدوم محمد وميسره بعيرانها قبيل زواجها .

عاش الزوجان فى هـذه الدار عيش أمن ودعة ، ولم يكن لفارق السن بينهما أثر . فخديجة التى بدأت العقد الخامس من حياتها ، كانت شـابة القلب يدفعها إعجابها بزوجها وحبها له ، ذلك الحب المتعقل الرصين ، إلى تحرى رغباته ، وتحسس ميوله ، والسهر على راحته . ومحمد كان ناضجا ، راجح العقل ، كبير القلب

استطاع ولم تتجاوز سنه الخامسة والعشرين ، أن يقوم من خديجة مقام الزوج والأب والأهل جميعا .

ورأت خديجة ألا تحول بين زوجها وبين الاشتراك فى الحياة العامة ، وأن تخلى بينه وبين ما أخذ نفسه به من تأمل وتفكير . فأعفته من تدبير مالها ، وأخذت تقوم هى عليه كما كانت تفعل قبل زواجها .

وكانت خديجة تعلم حق العلم ، أنها لم تتزوج رجلا من عامة الناس ، تشغله المطالب الصغيرة ، فحرصت على أن تحيطه فى فى الدار بجو من الهدوء والطمأنينة ليستطيع فيه أن يخلو إلى نفسه ، واليها ، وإلى الناس ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا .

ولم يمنعه ذلك كله بفضل ما هيأته له خديجة من أسباب الحياة الوادعة الهنيئة ، من أن يلبى داعى الجماعة . فقد كان يشارك قريشا فى أحاديثهم وسمرهم ، يجلس واياهم فى دار الندوة بجوار الكعبة ينصت اليهم وهم يتحدثون فى تجارتهم وفى مصالحهم ، ويشير عليهم برأيه الثاقب الحكيم حتى أخذت الجماعة تفسح لة مكان الصدارة يوما بعد يوم . فقام منها مقام الناصح ومقام المشير ، ومقام الموفق لرغباتها ، الحلال لمشكلاتها

وكانت خديجة تسمع ما ينهض له زوجها من جلائل وما ييسر على يديه من معضلات القوم ، فتفرح ، ويزداد إقبالها على الحياة معه وتعمل كل ما من شأنه أن يسعده ويثلج خاطره

ومن كان أسعد من خديجة عند ما علمت أن زوجها استطاع بكلمة منه أن يمنع حربا لا يعلم إلا الله مداها . كانت ستشترك فيها قبائل قريش جميعاً ، فيفنى بعضها بعضا . وما كان قيامها من أجل ثأر قديم أو جديد ، ولا كان من أجل خلاف على بئر من الآبار أو دار من الدور ، ولم يكن ذياداً عن لاجيء أو لاجئه ، أو استرداداً لناقة أو بعير . . وانما كان من أجل أقدس ما عندهم وهو الكعبة ، التى يحجون اليها ، والتى آلوا على أنفسهم ألا يشهروا السيف فى موسمها . بل كان من أجل أقدس شيء فى الكعبة نفسها وهو الحجر الأسود . فقد اجتمعت قريش على إعادة بناء الكعبة ، وقام محمد بنصيبه فى هذا العمل الجليل . ولما جاءوا الى الحجر الأسود ، اختلفوا فى أيهم يكون له فخار وضعه في مكانه . وهو عمل سيذيع بين العرب جميعاً ، يتناقلونه رعيلا بعد رعيل ، تضيفه القبيلة التى سوف تقوم به ، الى مآثرها ، فيفخر به أبناؤها جيلا بعد جيل ، فليس من العجيب اذن أن

محتدم الخلاف بين القبائل وأن يتطاير الشرر . وأشار مشير بأن يصدعوا لحكم أول داخل عليهم ، فلما رأوا محمداً يطلع عليهم تنفسوا الصعداء لما يعرفون فيه من نضوج لرأى مع الحصافة .
فأحضر ثوباً ونشره ، ووضع الحجر عليه ، وطلب من أمير كل قبيلة أن يمسك بطرف من أطرافه ، ورفعوا الثوب الى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، فتناوله محمد ووضعه فى موضعه .
ولولا ذلك لكان الحجر الأسود يوماً من أشهر أيام العرب هولا ، وأكثرها للنفوس بذلا . . .

وكان الزوجان على يسارهما يعملان بأيديهما فى كثير من الشئون ، ترويضاً للنفس ، وتخفيفا عن الخدم ، وكانت الدار بهم عامرة ، كانا يعطفان عليهم ويحسنان اليهم وكأنه لا فارق هناك بين السيد وعبده ، ولا بين ربة الدار وأمتها . . فازداد هؤلاء الخدم بهما تعلقا ، وفى خدمتهما اخلاصا وتفانيا .

ولم يمض طويل وقت حتى أنجبت خديجة له القاسم ففرح به فرح العربى للعقب من الذكور ، فسيحفظ له نسبه وسيبقى اسمه واذا ترعرع صار له وزيراً صديقا . وفرحت خديجة لفرحه ، وهى التى أنجبت قبل ذلك من الذكور اثنين . وكانت قابلتها

سلمى مولاة صفية عمة محمد وزوج العوام أخى خديجة فى الوقت نفسه ، فأعطتها شاتين ، وسلمت الغلام كعادتها الى مرضع أعدتها لذلك من قبل ، وما كان أسعد محمد حين يناديه الناس بأبى القاسم ، وما كان أسعد خديجه حين كانت تسمع الناس يكنونه به .

وما انفرط عام حتى انجبت له بنتا أسمتها زينب ، وأعطت قابلتها سلمى شاة واحدة عند ولادتها ، وسلمتها للمرضع كما فعلت مع القاسم ، واغتبطت خديجة لانها أنجبت لزوجها ذكراً وأنثى ، يشد الأول أزره وتصل الثانية حبله .

ولكن الأيام التى لا تستقر على حال واحدة ، أبت الا أن تعكر صفو هذين الزوجين الهانئين ، فقد أصابت الصغير وعكة لم يجد فيها طب أو دواء . فروعهما موته وجزعا عليه جزعاً شديداً وكانت خديجة تخرج مسرعة الخطى بادية الهم ، الى اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى تسترحمها وتستلهمها الصبر ، وتدعوها أن تهب لها ولمحمد غلاما آخر ، لعله يخفف عنه فقدان القاسم ، وكم من مرة حاولت أن تكتم حزنها وأن تموه عبراتها ، ولكنها لم توفق . وكان محمد كلما عاد الى بيته

واستشف حزنها حزن فى نفسه الألم المرير .

ولما لم يطق محمد على الحرمان صبراً ، وهبت له خديجة غلاما كان قد اشتراه لها حكيم ابن أخيها حزام ، فتبناه وأسماه زيداً لمحبة قريش فى هـذا الاسم وهو اسم لقصى . وقد كان يمنحه من أبوته ، ما يمنح الرجل ابنه لصلبه . وكان يكنى بزيد بن محمد ، ولم يفرط فيه حتى لأبيه ، ذلك أنه لما قدم حارثة وكعب ،مكة فى فداء ابنهما ، سألا عن محمد حتى وجداه فقالا له :

جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا ، واحسن فى فدائه فانا سندفع لك .

قال : وما ذاك ؟ قالا : زيد بن حارثة . .

فقال : أو غير ذلك ؟ دعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء . . وان اختارنى ، فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء . .

فدعاه وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ . .

قال : نعم ، هذا أبى وهذا عمى .

قال : فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما ؟

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكان الأب والعم .

فقالا : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية .. وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ ..

قال : قد رأيت من هـذا الرجل شيئا ، ما أنا بالذى أختار عليه أحدا .

فلما رأى محمد ذلك أخرجه الى الحجر وأعتقه وقال: اشهدوا، ان زيداً ابنى يرثنى وأرثه ؟

ثم أنجبت خديجة له رقية فأعطت قابلتها سلمى شاة ، ودفعت بها الى المرضع كما فعلت بأختها ، وكانت الطفلة جميـلة يقترب شكلها من أمها كلما استبانت ووضحت قسماتها .

وولدت بعد ذلك أم كلثوم وأعقبتها بفاطمة،وكانت ولادتها عام بنيان قريش الـكعبة ، وقد سمتها خديجة « فاطمة على اسم أمها .

وأصابت قريش أزمة شديدة، وكان أبو طالب رجلا معيلا، فقال محمد للعباس عمه ، وهو من أيسر بنى هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأزمة ، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا ، وتأخذ من بنيه رجلا ، فنكفيهما عنه .

قال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك ، حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب : اذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ما شئتما .

فأخذ محمد عليا فضمه اليه . وأخذ العباس جعفر فضمه اليه .

وكان عليا فى سن زينب ابنة محمد ، ولد فى العام الذى ولدت فيه ، وظل مع ابن عمه حياته كلها . ولقى منه ومن زوجه خديجة التكريم والاعزاز ، وكان منهما فى موضع الابن البار يجلهما ويعجب بهما ، ويقدر صنيعهما معه ومع أبيه .

وهكذا عمرت الدار بالبنين والبنات ، وقد انضم للجميع هند بن خديجة من أبى هالة ، فأدناه محمد وقربه وجعله فى مكان أبنائه .

وعاشت هذه الأسرة راضية مرضية بين حدب الأم ، وحنان الأب ، وعطف الأبناء ، يصلون الرحم ويؤتون ذا القربى ، ويتزاورون مع العشيرة . وكان يلم بالدار أبناء الأعمام ، وأبناء

الأخوال ، فيلقون فيهـا ما يلقى الابن فى بيته . وكانت خديجة ترحب بالجميـع وتشملهم بأمومتها . وكان ممن يغشى الدار عتبة وعتيبة أبنا عم محمـد عبد العزى (أبى لهب) ، وهو عين من أعيان بنى هاشم ، وسيد من سادات قريش . وأبو العاص بن الربيع من هاله أخت خديجة . وكان مؤاخياً لمحمد يحبه ويثنى عليـه ، مقدّراً من قومه لاستقامته و نجاح تجارته .

وعنى محمد بتزويج بناته ، كلما شبت واحدة منهن . فزوج كبراهن زينب الى ابن خالتها أبى العاص . . وزوج رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبه . أما فاطمة فكانت لا تزال طفلة .

وسايرت خديجة زوجها فى سمو نفسه ونبل غاياته . . ورأت زوجها يبسط نفسه ويده ، للضعيف والمحروم ، فشاركته برّه وشجعته عليه . وفتحت دارها مثابة للمضطرين وأمناً ، فقصدته الأيامى ، وخففت فيـه أحمال كثيرين ممن أحنت ظهورهم ، كثرة الآل وقلة المال .

# ٦

هذه الحياة الهادئة الوادعة التى حملت خديجة كل أعبائها المادية أو جلها .. هذه الحياة التى عاشها محمد بين زوجه وأهله ، هيأت له ترك نفسه على سجيتها ، والانقطاع الى التأمل والتفكير .

وقد احترمت خديجة ، رغبة زوجها العظيم فى العزلة ، وساعدته عليها ، بما هيأت له من أسبابها . وكان يطلعها على نزوعه الى معرفة الحق واستكناه ما فى الكون من أسرار فكانت تثبته وتشجعه عليه .

وما أسرع ما استجابت خديجة الى زوجها عندما رأته يسير على سنة حكماء العرب ومفكريهم فى الانقطاع زمنا فى كل عام ، يأخذ نفسه فيه بألوان من المجاهدة ، ويعمل على كشف حجاب حسه وتصفية قلبه .

وقد اختار جبلا على فرسخين من شمالى مكة ، هو جبل

حراء . يقف بعزلة عما حوله من نجاد وجبال، ويشبه فى استقامته البرج المنطلق فى السماء . واهتدى فى أعلاه الى غار بنجوة من العيون، يصلح لما يريد من الانقطاع والتحنث، لا يتسع لغير فرد واحد ينام فيه . ولا يصل المرء اليه الا بالمرور بين صخرتين تكادان تلتصقان . وهو محجوب عمـا حوله، بصخور ضخمة لا يتسرب منها النور الى أبعد من فوهته، فأما وراء الفوهة فظلام دامس لا تهتك العين حجابه .

كان محمد يلجأ الى هذا الغار المنعزل كلما أقبل شهر رمضان، وخديجة تهيء له ما يلزمه من الزاد، فيسير به وحيداً منفرداً، مخترقاً طرق مكة من الجنوب حيث تقوم داره، الى الشمال حتى يبلغ الجبل، فيصعد فيه الى قمته، فيجلس عندها وقد أخذ منه الجهد كل مأخذ، فيجد الخدود وقد تجمعت فيها مياه المطر، وبالقرب منها الغار الذى يأوى اليه اذا أجنه الليل .

هنالك أخذ محمـد يطالع الحياة وتطالعه ويسرح طرفه فى أرجاء الوجود، ويتأمل بعين قلبه ما فى الـكون من آيات، فيسمو بنفسه، وتصفو روحه، لا تشوبها شائبة من شهوات الدنيا، ولا يفسدها عليه شيء من متاعها ولا من زخرفها .

واذا انقضى شهر رمضان عاد الى بيته بادى الإعياء ، ينم وجهه عما يختلج فى نفسه من هم وقلق . وترى خديجة مظاهر الاعياء والتفكير بادية عليه ، فتسرّى عنه وتهدىء نفسه ، وتحاول أن تزيل بعض ما ألمّ بهـا من ضيق ، فيسكن اليها ويكشف لها عما يساوره ، فتتأثر به ، وينتقل اليها من همه وقلقه الشىء الكثير .

كفلت خديجة لزوجها الحياة المادية وشاركته هموم نفسه ، وزادت على ذلك فاصطحبته أكثر من مرة فى طريقه الطويل الى الجبل ، وصعدت الى قمته ، وسرحت نظرها معه فيما كان يسرح فيه نظره من صفحة هذا الوجود . وكثيراً ما كانت تحمل اليه الطعام بنفسها ، فتسير فى هذا الطريق منفردة ، وتحتمل مشقة التصعيد حتى تصل الى زوجها المنفرد بنفسه عن الناس . . فاذا انقضى العام وجاء شهر رمضان ، ذهب محمد الى حراء وعاد لى تفكيره فينكشف له الحق شيئاً فشيئاً .

ظلّ على ذلك أعواما ، تخلصت نفسه من الباطل كله . وتهيأت لما اصطفيت له من أمر عظيم ، وخديجة الى جانبه تهيأت نفسها ، لقبول هذا الأمر العظيم .

* * *

أخذت خديجة ترعى زوجها فى هـــذه الآونه الدقيقة من حياته، فتذهب بنفسها فى الغار لتطمئن عليــه . وترسل اليه رسلها اذا طال مقامه فيه . واذا عاد اليها حاولت جاهدة أن تعيد اليه هدوء نفسه، وكلما زادت مخاوفه، زاد اشفاقها عليــه . ألم يكن يقوم فى الليل فيرهف أذنه وقلبه ؟ وتثور به التأملات فينحدر من الغار ضاربًا فى الصحراء ثم يعود الى خلوته ؟ ألم يقل لها إنه يخاف على نفسه عبث الجن به ؟ ولـكن خديجة وهى الجلدة العاقلة لم تفرق لذلك، ولم تجزع، ولم تنثن يوما عن تبديد مخاوفه .

وبينما هو يتحنث فى حراء الليالى ذوات العدد، إذا به يرى فى نومه الرؤيا الصادقة تنبلج كفلق الصبح، فتبدد ظلمـــات الأباطيل والأوهام .

وطال مقام محمد بغار حراء مرة، فأرسلت اليــه خديجة رسلها يبحثون عنه، فيه وفى الشعاب المؤدية اليه فلم يجدوه، فقلقت عليه، وخافت أن يكون قد مسه أذى .

ثم جاءها مرتاعًا هلعًا وهو يقول : زمّلونى . زمّلونى . فزمّلوه، حتى اذا ذهب عنــه الروع . قالت له : يا أبا القاسم

أين كنت ، فوالله ، لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليَّ .

فأجابها : إنني لشاعر أو مجنون . .

فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم ، ما كان الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم من صدق حديثك وعظم أمانتك وحسن خلقك ، وصلة رحمك . وما ذاك يا ابن عمي ؟ لعلك رأيت شيئاً . .

قال : نعم ، جاءني وأنا نائم بغار حراء بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . فغتّني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ . وما أقول ذلك الا افتداء منه أن يعود اليَّ بمثل ما صنع بي قال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » قال : فقرأته .

قال : ثم انتهى ثم انصرف . وهببت من نومي وكأنما كتب في قلبي كتاب ، واستطرد يقول وهي تنصت اليه خاشعة : ولم يكن من خلق الله أحد أبغض اليَّ من شاعر أو مجنون ، وكنت ، لا أطيق أن أنظر اليهما . وقلت لنفسي أني لشاعر أو مجنون ،

لا تحدث به قريش أبداً . لأعمدن الى حالق من الجبـــل ،
فلأطرحن نفسى منه ، فلأقتلنها فلأستريحن .

ثم قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى اذا كنت فى وسط
من الجبل ، سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله ،
وأنا جبريل .

قال : فرفعت رأسى الى السماء ، فاذا جبريل فى صورة رجل
صافّ قدميه ، فى أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله ،
وأنا جبريل .

قال : فوقفت أنظر اليه ، وشغلنى ذلك عما أردت ، فما أتقدم
وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء . فلا
أنظر فى ناحية منها ، الا رأيته كذلك فما زلت واقفاً ، ما أتقدم
أمامى ولا أرجع ورائى ، حتى بعثت رسلك فى طلبى .

ورجعوا اليك وأنا واقف في مكانى . ثم انصرف عنى
وانصرفت راجعاً اليك .

وسمعت خديجة حديث زوجها فى اشفاق واهتمام باديين ،
وقالت له : ابشر يا ابن عمى واثبت . ثم قامت فجمعت عليهـا
ثيابها وانطلقت الى ابن عمها ورقة ، فأخبرته بما أخبرها به محمد .

قال ورقة : قدوس . قدوس . لئن كنت صدقتنى ياخديجة لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذى كان يأتى موسى ، فقولى له فليثبت .

ورجعت خديجة الى محمد فألفته لا يزال نائماً ، فأخذت تلحظه فى اشفاق وأمل وفيما هى كذلك اذا به يهتز ويثقل تنفسه ، ويقوم ليستمع الى الملك يوحى اليه :

« يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبّر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر . »

ورأته خديجة كذلك فازدادت اشفاقاً عليه ، وتقدمت اليه فى ضراعة أن يعود الى فراشه ، وأن ينام فيستريح فكان جوابه : انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى ، جبريل ، أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم الى الله والى عبادته .

فجهدت خديجة ، تهون عليه الأمر وتثبته ، وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وما حدثها به .

ثم لقيه ورقة وهو يطوف بالبيت ، فقال . يا ابن أخى اخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك .

قال محمد : أمُخرجىَّ همَّ ؟ . .

قال ورقة : نعم . . إنه لم يجىء رجل قط بما جئت به إلا عودى ، ولئن أُدركنى يومك . أنصرك نصراً مؤزّرا .

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى منزله ، فلما لقى خديجة ، قالت تثبته فيما أكرمه الله به من النبوة :

يا ابن عمّ ، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك اذا جاءك ؟

قال : نعم . قالت : فاذا جاءك فاخبرنى به

وجاءه جبريل كما كان يأتيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

قالت : نعم ، فقم يا ابن عمّ فاجلس على فخذى اليسرى . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها .

قالت : هل تراه ؟ . قال : نعم .

قالت : فتحول فاقعد على فخذى اليمنى

فتحول رسول الله فجلس عليها .

فقالت : هل تراه ؟ ..     قال : نعم ..

قالت : فتحول فاجلس فى حجرى ..

فتحول فجلس فى حجرها ..

ثم قالت : هل تراه ...     قال : نعم .

فألقت خمارها ورسول الله جالس فى حجرها ثم قالت :

هل تراه ؟     قال : لا ..

فقالت : يا ابن عمّ اثبت وابشر ، فوالله انه لملك ، وما هو بشيطان ..

فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشعر بوحشة من الناس ومن نفسه ، وعاد الى قلقه ، ومخاوفه ، قبل نزول الوحى ، وقالت له خديجة : ما أرى ربك الا قد قلاك .. وجعل يغدو الى رؤوس الجبال الشواهق ليتردى منها . فكلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فيقول : إنك نبى الله .. فيسكن لذلك جأشه ، وترجع اليه نفسه .

ثم جاءه الوحى بعد طول فتوره واذ نزل عليه بقوله تعالى :

« والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ،

ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدِّث . »

فرحت خديجة بعودة الوحي الى زوجهـــا ، واطمأنت بطمأنينته ، وذهب قلقها بذهاب قلقه . وأخذ الوحي يعاوده ، والآيات تنزل عليه تباعاً .

ولما افترضت الصلاة أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فعلمه الطهور والصلاة . فجاء رسول الله صلى الله عليـه وسلم خديجة وعلّمها ما علمه جبريل .

ودخل عليّ بن أبي طالب الدار فوجد إبن عمه وزوجه ، يقومان ، ويركعان ، ويسجدان ، فوقف مبهوتاً ، حتى اذا فرغا سألهما عما يفعلان فأنبآه النبأ العظيم . . فآمن وأسلم وسنه لا يتجاوز الثامنة . وكان الناس في الكعبة يرون رجلا ينظر الى السماء ويستقبل الكعبة ، وعن يمينه غلام وخلفهما امرأة ، يركعان بركوعه ويسجدان بسجوده ويقومان بقيامه ، فيتساءلون ، ويتهامسون بأنهم محمد وعليّ وخديجة . وأنهم على دين ليس على وجه الأرض من يدين به سواهم .

# ٧

ولم تنس خديجة على احتفالها بالدين الجديد، وتحمسها له ، ما يجب عليها نحو زوجها من تهيئة أسباب راحته وأمنه ، كانت تشاركه إيمانه وتعبده ، وتقوم في الوقت نفسه على شئونه وشئون أبنائه : وكانت تحمل اليـه الزاد بأعلى مكة كما كانت تفعل أيام تحنثه ، فزادت بذلك قربا من الله حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : أتانى جبريل فقال : يا رسول الله ، هـذه خديجة أتتك ومعها إناء فيه طعام وشراب ، فاذا هى أتتك فاقرأ عليها من ربها السلام .

وأخذت الدعوة تنتشر رويداً رويداً بين أهل النبى ، وخاصته وأصحابه وثقاته ، وإن خديجة لتعلم أن ذلك يزيد من أعبائها ، ويضاعف من عملها ، وهي مغتبطة به راضية ، فأسلم زيد وكان ثانى من أسلم من الذكور بعـد علىّ ، ثم أسلم أبو بكر أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ،

وكان رجال قومه يألفونه لعلمه وحسن مجالسته . فأخذ يدعو الى الله ، والى الاسلام. من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس اليه

وعرف هؤلاء السباقون الى الاسلام ، أن قريشاً ،لن تصبر عليهم طويلا لأنهم يدعون الى دين غير دين آبائهم وأجدادهم ، وكان يبلغهم ما يتهامس القوم به من أمر دينهم وصلاتهم ،فأخذوا يذهبون الى شعاب مكة ، يستخفون بصلاتهم ونجواهم ، واذا القوم رأوهم اهتزأوا بهم ، من ذلك أنه بينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبى قاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى [1] بعير ، فشجه ، فكان أول دم هريق فى الاسلام .

وكانت خديجة تلحظ هذه الجماعة الاسلامية الصغيرة فى غير قليل من الاشفاق ، لم ترتب قط ، فى أن زوجها وصحابته وهى على حق . وأن سائر القوم على باطل ، ولكنها كانت تعلم ، أن هذا التستر لا بد سيبلغ حده ، وأن الله سبحانه وتعالى ،

---

(١) اللحم الذى على الفخذ

سوف يظهر دينه ، وأن تهامس قريش ، سوف ينتهى الى المجاهدة فالملاحاه ، وهاهم قد بدأوا يشتبكون مع المسلمين ، فتراق الدماء . إنها تخاف على زوجها وصحابته النذر ، وان كانت قوية الثقة بنفسها ، وبزوجها ، شديدة الايمان بدينها الجديد .

وقد أسلمت ابنتها زينب . ولم يسلم زوجها أبو العاص ، ولا أسلمت أمه هالة ، أخت خديجة ، وأسلمت رقية وأم كلثوم ، ولم يسلم زوجاها عتبة وعتيبة ، وأسلمت فاطمة . وهكذا تم إسلام أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم دون أصهاره ، وكان ذلك نذيراً بما سيكون بين الأصهار ، من فرقة وخلاف .

وإن مخاوف خديجة لتعظم ، وأن هموم نفسها لتشتد ، لم تعد زوجة كسائر الزوجات ، ولا أماً كسائر الأمهات ، ينحصر عملها فى القيام على الدار والولد ، ولكنها أصبحت زوجة النبى .. تتسع نفسها . فتشمل الجماعة الاسلامية النامية . وتبسط أمومتها على المؤمنين جميعاً ، لكل منهم نصيب من عطفها ورعايتها ؛ وما قد تتعرض له بناتها ، جانب مما تتعرض له الجماعة الاسلامية كلها . نعم .. إنها تحب لبناتها ما تحبه سائر الأمهات لبناتهن ، زوج صالح كريم ، وما يستطيع أحد أن يقول ، إن زينب

تكره ابن خالتها أبا العاص . وهو مقدم فى قومه ، محبوب من عشيرته وأهله ، انها تحبه وهو رب بيتها ، ولكنها تحب الله رب العالمين أكثر منه ، وما يستطيع أحد أن يقول أن بنتاً من بنات قريش تطمع فى خير من عتبة وعتيبة ابنى عبد العزى ، وأبوها عين من أعيان قريش وهما فى الوقت نفسه إبنا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقية وأم كلثوم تحسدان عليهما ، ان كان يحسد الانسان على أمل فحسب ؛ لقد مرت هذه المخاوف والهموم بنفس خديجة ، ولكنها كانت تتغلب عليها ، لا يخالجها ريب فى أن الايمان بالله الواحد الأحد . سوف يعمر جميع القلوب فيرأ الصدع ، ويلتئم الشمل ، ويتجدد الأمل . . .

وكان ثمة رجاء ، يداعب نفسها بين حين وحين . كانت تريد أن تنجب لمحمد غلاماً سرّياً ، يؤنسه ويخفف عنه ، وأخوف ما كانت تخافه ، أن يظل أبتر لا ابن له ، والعرب يعيرون الأبتر ، ويقدرون أبا الولد . وكلما كثر أبناء العربى ، اشتد بهم ساعده وقويت شوكته .

والأيام تمر ، ورجاءها فى هذا الولد يضعف شيئاً فشيئاً ،

وهى تدنو من ختام الحلقة السادسة من عمرها يوما بعد يوم .
وليس من شك فى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يحب بناته حباً لا يعدله حب ، ولكنه كان يتمنى ، فى الوقت نفسه أن يكون له ولد تمتد حياته فيه أعماراً وأعماراً ، لقد وهب له القاسم ، ولكنه قضى قبل أن تغمر الفرحة به ، قلبي والديه .

وأخيرا تحقق الأمل الذى كانت خديجة تصبو اليه ، وولدت له الابن المرتقب ، فسماه النبي ، عبد الله ، على اسم أبيه ، ولقب بالطاهر والطيب لأنه ولد في الاسلام ، وفرح به أبواه وأخواته وأهل الدار جميعا ، ونسيت فيه خديجة جل همومها ومخاوفها ، ونسى فيه رسول الله ، تهامس قريش عليه ، وعلى صحابته ودينه ، وأشرقت به وجوه أخواته ، وحمدت خديجة الله سبحانه وتعالى ، على ما أعطي ووهب ، وذبحت الشاة وفرقت لحومهـــا على الفقراء والمساكين ، ابتهاجاً بمقدمه الذى طال انتظارها له ، وخوفها من انقطاع رجائها فيه .

ولم تكد الفرحة به ، تستقر فى النفوس ، ولم تكد الآمال تنعقد عليه ، بل ولم تكد الأمومة والأبوة تتهيآن

لرعايته والعناية به ، حتى اختاره الله سبحانه وتعالى ، اليه برعما ؛ لما تنفتح أكمامه للحياة .

لقد مرت على خديجة المحن واحدة بعد أخرى ، فما فجعها أكثر من موت عبد الله ، ولولا إيمانها بالله عز وجل ، وتجملها بالصبر ، وعزاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، لحزنت عليه حزن الجاهلية . . . وهى يوم فقدت القاسم بالأمس ، لم تكن قد فقدت الأمل فى أن تنجب غيره ، ولكن أنى لها اليوم بغيره وهى على عتبة الستين ! . . أليس يحز فى نفسها أن زوجها لا يزال يكنى بأبي القاسم ، كلما نادى به أحد ، التفت ! . . وكل ولد لا يعوض الآخر ؛ ووفاة عبد الله قد أحيت وفاة القاسم ، وهى ساعة تحزن عليه ، تحزن على الاثنين معاً .

وخديجة تعلم علم اليقين : أن زوجها المصطفى من الله سبحانه وتعالى ، ليس كغيره من الرجال ، ينصرف عن زوجه اذا يئست من الولد . . إنه أسمى من ذلك وأعظم ، والولد والبنت منه سواء ، ولكنها كانت تحبه وتحب أن يكون له منها ولد . وخديجة تعلم علم اليقين كذلك ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحفظ الرجال لوده ، وأوفاهم لعهده ، لا يمكن أن يضار عليها ، أو

ينصرف عنها، ولو لم تنجب له ولداً ولا بنتاً ؛ وخديجة تعلم علم
اليقين أيضاً، أن محمداً أب يفرح اذا بشر بالولد، ويحزن اذا
نعى اليه، وهو اذا واساها، فإنما يواسى نفسه معها. لم تستطع
أن تخفى حزنها أو تغالب دموعها التى تحتبس بين جفونها.

والله سبحانه وتعالى، يمتحن نبيه، يعطيه ثم يأخذ منه،
ليجعله مثالا فى الصبر الجميل.

لقد عاد إلى زوجه بعد أن خط لحد عبد الله، لم ينس فى
حزنها حزنه وإن تشاغل به، عما فى نفسه. لقد كفكف دمع
خديجة وواساها، وما يفيدها أن تفقد ولداً قد لا تنجب غيره،
وهؤلاء المؤمنون جميعاً أبناؤها، فلتتعز بهم عن عبد الله،
ولتدع لهم كما تدعو الأم لأبنائها من نصر مبين.

٨

وانقضى على استخفاء المسلمين بصلاتهم فى شعاب مكة،
ثلاث سنين، وكان الناس يدخلون فى دين الله فرادى، وقريش
تنظر اليهم فى استخفاف، يقل كلما خرج عليها واحد من أبنائها..
ثم انقلب هذا الاستخفاف، الى شيء من العبوس عند

ما استيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأخذتها مسها يتحول على الأيام الى ما يشبه اللغط ، وأخذت النفوس تتهيأ ليوم لا كالأيام ، تدافع فيه قريش عن سننها الموروثة ، ونظمها القائمة ، فى دفاعها عن آلهتها من لات وعزى .

فى هـذه الفترة التى يغلب عليها السكون المنذر بالعاصفة ، أنزل الله سبحانه وتعالى على خاتم النبيين :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل إنى برىء مما تعملون » .

وقلق النبى صلى الله عليه وسلم ، على أثر نزول هذه الآية قلقا لا مزيد عليه . وخافت خديجة ان هو أنذر عشيرته الأقربين يرى منهم ما يكره ، فليس من اليسير أن يتحولوا عن دين وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم ، وليس من السهل على نفوسهم ، أن يتزحزحوا عن سلطانهم القائم بقيام هذا الدين ، ومحمد يجرىء عليهم أبناءهم ، ويثير عبيدهم وإماءهم ، ويجتذب اليه نفرا من عقلائهم وسراتهم ، فلو دعاهم ، ما استجابوا ، بل وما انصرفوا عنه موفورين ، ولكنهم سيخاصمونه ، ويلجون فى الخصام ، ويناكرونه ويشدون النكير ، . . . لهذا وجم الرسول ، ووجمت

زوجه ، أم المؤمنين ، حتى جاءه جبريل وقال له : يا محمد إنك ألا تفعل ما تؤمر به ، يعذبك ربك .

وإذن . فلا بد من أن يصدع بأمر ربه ، فينذر عشيرته الأقربين ،ويخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين . وخديجة التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى له ، تقف الى جانبه ، كما وقفت من قبل ، وقد استجمعت شجاعتها وشحذت عزمها ، تخرجه من قلقه وكآبته ، وتيسر له أمره وتهونه عليه .

وإنه ليخرج من الدار بعد هذا ، وفي عينيه مضاء مَنْ حشد نفسه لأمر عظيم ، فصعد الصفا وهتف :

يا صباحاه . . . !

قال بعضهم : من هذا الذي يهتف ؟ . .

قالوا : محمد .

واسترسل النبي صلى الله عليه وسلم في هتافه :

يا بني عبد المطلب ، . . . يا بني عبد مناف ، . . . يا بني أسد . . فاجتمعوا اليه .

فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ . .

قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

قال : فاني نذير لكم بين يدىّ عذاب شديد .

فقال عمه عبد العزى : تبا لك ! ما جمعتنا الا لهذا ؟ ثم قام ، وتفرق الجمع بعده .

وعاد النبي الى خديجة ، وقد زاد وجومه ، وظهر الهم عليه .. وقص عليها نبأ الجمع ، وما كان من أمر عمه عبد العزى ، فأخذ العجب منها كل مأخذ ، عند ما سمعت أن أول من أعرض هو أقرب الأقربين اليه .. عمه وحمو بنتيه . . فكيف يسترسل في انذار عشيرته الاقربين ، وقد رأى منهم ما رأى ، ولما يزل في أول الطريق ؟ . . وماذا يكون عند ما يجادلهم ، ويظهر لهم فساد عقائدهم ؟ . . ولكن خديجة ، . . تقوى عزمه أن كانت تعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يخذل نبيه . فنزل عليه جبريل بقوله تعالى :

« تبت يدا أبى لهب وتب
ما أغنى عنه ماله وما كسب
سيصلى ناراً ذات لهب
وامرأته حمالة الحطب
فى جيدها حبل من مسد »

وتعزى النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة ، وذهب الهم عنه ، وسرّى عن خديجة ، لما علما بما ينتظر أبالهب وأم جميل زوجه من عذاب مقيم ، لا نجاء لهما منـــه ، ولو بذلا كل ما لهما من طارف وتليد. ولعل أشياخ قريش وفتيانها يخففون من غلوائهم ، ويجنحون الى السلم فيما دعاهم اليه رسول الله ، مخافة أن يحيق بهم ما سيحيق بأبى لهب وزوجه .

وأخذت الآية الكريمة تنتقل على الألسنة والشفاه ، حتى بلغت مسامع أبي لهب وامرأته ، فاستشاطا غضبا ، وتشامخا صلفاً وكبراً ، وتصامما عن هذا الكلام فى النار التى سيصليانها ، وأخذا يعيران النبى صلى الله عليه وسلم بفقره ، وبخاصة أم جميل المعتزة بأنها أخت أبى سفيان وبنت حرب بن أميه .

ودفعهما الحنق الى أن يحلا ما سبق أن عقداه ، فجمع أبو لهب ولديه عتبة وعتيبة وقال لهما :

رأسى بين رؤوسكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد !

وقالت أمهما : إن رقية وأم كلثوم قد هبئتا فطلقاهما !

وصدع الفتيان بأمر هذين الأبوين المتجبرين ، لا ينظران

ساعة غضبهما إلى قرابة أو مصاهرة، ولا يحفلان برغبات ولديهما فيما يصدران من أمر.

وطلق عتبة وعتيبة رقية وأم كلثوم قبل أن يدخلا بهما، وقلباهما يكادان ينفطران من الحزن، فرقية أجمل بنات خديجة وأشبههن بأمهـــا، وأم كلثوم من أرق بنات قريش حاشية وأغضهن طرفاً.

وظن أبو لهب، وظنت زوجه أن النبي سيحزنه طلاق بنتيه، ولـكنه خيب ظنهما، وفرح بالنبأ أيما فرح، فما يريد أن يربط مصير بنتيه بابنى رجل لا يرعى آصرة ولا يحفظ رحماً، وامرأة غليظة القلب أبطرها المال والنسب.

أما خديجة فقد حمدت الله على خلاص ابنتيها، ولم تجار نساء قريش، فيما ذهبن اليه من أن عتبة وعتيبة، ممن يتشبث بهما، ويحرص عليهما لأنهما يجمعان بين محتدين، محتد أمية ومحتد عبد المطلب.

وكانت رقية ذات جمال بارع، وكان عثمان يريد أن يخطبها لنفسه، فلما تزوجها عتبـــة دخلت الحسرة قلبه، لأنه لم يسبقه اليها. وما كاد يسمع نبأ طلاقها من عتبة، حتى أفعم قلبه السرور، وأسرع الى النبي صلى الله عليه وسلم، فزوجه

إياها مغتبطا راضيا ، وهكذا رأت خديجة أن الله سبحانه وتعالى، يعوضها وبناتها خيراً ممـا فقدن ، بعثمان بن عفان على غناه ودماثته كان من آثر الناس على رسول الله ، وأقربهم اليه ، وأسرعهم الى الدخول فى الاسـلام ، وهو الى جانب هـذا كله ، من أصبح قريش وجها ، وأشرفهم نسبا ، فأبوه من ولد أمية ، وأمه من ولد عبد المطلب ، واقترن جماله بجمالها ، وكان يقال : أحسن زوجين رآهما إنسان ، رقية وزوجها عثمان .

وأدركت أم جميل بأنها لم تغظ أحـدا سوى ولدبها ، فامتلأت نفسها على محمد حقدا . وبيتت الشر لقريبها عثمان وزوجه . وبات أبو لهب من ابن أخيه على ضغن ووتر .

٩

باداً رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالاسلام ، لا يرده عنه شىء ، فما ابتعدوا عنه وماردوا عليه ، فلما ذكر آلهتهم وعابها ، ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته .

وقيض الله سبحانه وتعالى له فى هذه الفترة العصيبة ، زوجة لاتدخر فى سبيل نصرته جهدا ، ولا مالا ، وعما ، لا يمنعه شىء

من الحدب عليه ، والقيام دونه .

ورأت قريش ، النبي بين زوجه وعمه ، فمشى رجال من أشرافها إلى عمه وقالوا له : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا . وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . فقال لهم أبو طالب، قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ، على ما هو عليه ، يظهر دين الله، ويدعو اليه ،يلاقى ما يلاقى فى سبيل ذلك ، فاذا ما رجع إلى خديجة ، أخذ يقص عليها ما يجد من صعاب ، فتثبته ، وتهون عليه أمر الناس وهى تغالب نفسها وتستر خوفها ، فينشرح صدره ،وترتاح نفسه ،ويمضى فى نشر دعوته ، بقوة مجددة ، وروح عظيم .

وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، وتذامروا فيه ،وحض بعضهم بعضا عليه ، ثم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ،

وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك فى ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه.

عظم على أبى طالب فراق قومه، وعداوتهم له، ولم يطب نفسا باسلام رسول الله لهم، ولا خذلانه. وأخيرا بعث أبو طالب إلى رسول الله وقال له: يا ابن أخى ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم... فابق علىّ وعلى نفسك، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق.

فظن رسول الله أنه قد بدا لعمه بداء، وانه خاذله، ومسلّمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه..

فقال: يا عماه،.. لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته... واستعبر رسول الله فبكى، ثم قام.

ولما ولىّ ناداه أبو طالب فقال: يا ابن أخى.

فأقبل عليه رسول الله فقال: اذهب يا ابن أخى، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا.

ولما سمعت خديجة ما دار بين أبى طالب وقومه من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، هالها الخبر واستعظمته، وعرفت

أن قريشا لن تقف غضبتهم عند حد ، وأنهم ماضون في الكيد لزوجها ، وصحابته والتآمر عليهم . وقريش أولو بأس شديد ، تخافهم القبائل ذوات العدد ، ولا قبل للمسلمين على منازلتهم ، وهم قليل .

عرفت قريش ، أن أبا طالب أبى خذلان رسول الله واسلامه واجماعه لفراقهم ، فمشوا اليه بفتى وقالوا له : يا أبا طالب هذا أنهد فتى فى قريش ، وأشعره ، وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصرته واتخذه ولدا ، فهو لك ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذى ، قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فانما رجل كرجل .

فقال أبو طالب : والله لبئس ما تسومننى ، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ، هذا والله لا يكون أبدا .

فقال أحدهم : والله يا أبا طالب ، لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب له : والله ما أنصفونى ، ولكنك قد أجمعت خذلانى ، ومظاهرة القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك .

عند ذلك حقب الأمر، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وتذامرت قريش على من فى القبائل من أصحاب رسول الله، الذين إسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من بها من المسلمين يعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم.

وازدادت مخاوف خديجة، وخشيت على النبي وصحابته أذى القوم وكيدهم، وانها لتعلم أن أبا طالب، يقف دون ابن أخيه وإن لم يدخل فى الاسلام، والقوم يجلونه ويوقرونه ويسودونه عليهم، ولكنهم سيخرجون عليه، إذا رأو تمادى النبي فى الحط من دينهم، وتمادى أبي طالب، فى منعهم عن ابن أخيه، وعدم إسلامهم إياه.

ولم تنس خديجة فى هذه الأيام الحوالك، أنها أم المؤمنين ففتحت دارها لمن يقصدها، وبسطت يدها لمن يحتاج اليها، وحاولت جهدها، أن تحول دون تعذيب المستضعفين، تمنع عن بعضهم بطش سادتهم، وتشترى بعضهم الآخر، لتخلصهم من ربقة الاذلال والظلم.

وقام أبو طالب، حين رأى قريشا تصنع ما تصنع في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله

والقيام دونه فاجتمعوا اليه ، وقاموا معه ، واستجابوا إلى ما دعاهم اليه .

فاطمأن قلب خديجة بعض الشيء ، أن رأت بنى هاشم وبنى المطلب ، يقومون قومة رجل واحد فى الدفاع عن ابن عمهم ، وانها لتعلم أن قريشا لن ترجع عما عزمت عليه ، وأن قيام بنى هاشم وبنى المطلب سيقوى من عزمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويشد أزره ما فى ذلك شك ، ولكنه سيزيد النار اشتعالا ، ويجعل الخصومة أشد وأخطر ، ولقد كانت بالأمس تريد أن تنازل رجلا واحدا ، ولكنها اليوم تتأهب لمنازلة قبيل وأى قبيل .

## ١٠

لو أن سيدة ، غير خديجة ، سمعت ما سمعته ورأت ما رأته ، من تصرف القوم حيال زوجها وصحبه ، لتزعزعت عقيدتها ، ولآثرت العافية . . .

ألم يكن يبلغها أن القوم اذا سمعوا بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، سفهوا حلمه ، وخيلوا رأيه ، وضعوا شرفه ، وان كان تاجرا كسّدوا تجارته ، وأهلكوا ماله ، وان كان ضعيفا أغروا به وضربوه ؟

ألم تكن تسمع بأن كل قبيلة، قد وثبت على من فيها، من مستضعفى المسلمين، يذيقونهم العذاب ألوانا، يحبسونهم، ويضربونهم ويمنعونهم الطعام والشراب أياما، ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء، وقلبه مطمئن بالايمان، ومنهم من يعصمه الله، فيتصلب فى دينه، ولو رأى الموت عيانا..

ألم تكن ترى الى الرجل من المسلمين، كيف كان يطرح فى بطحاء مكة، اذا حميت الظهيرة، وتوضع الصخرة العظيمة على صدره، ليكفر بمحمد، وبدين محمد، وليعبد اللات والعزى، فلا يزيده ذلك الا صبراً على صبر، وإيماناً على إيمان...

ألم تكن ترى الى هؤلاء الكفار غلاظ الأكباد، يعذبون النساء، يضربون الواحدة منهن، حتى تشرف على الموت، ولا يتركونها إلا سآمة وملالا، وينكلون بالأخرى، حتى يذهب بصرها، ويبقرون بطن الثالثة، حتى تخرج أحشاءها...

ألم تكن تشفق على رقية وعثمان، من أبى لهب وزوجه أم جميل، اللذين لم يغفلا لحظة عن حقدهما القديم، يكيدان لرقية وعثمان، ويتآمران عليهما ويلاحقانهما فى حيثما يكونان، يسمعانهما من القول أفحشه، ومن الكلام أقبحه...

وها هى ذى تحس بالنار ، تستعر رويداً رويداً ، ويتسع سرادقها ، فتعلم أنها موشكة على الاقتراب من دارها ، وأن أبا طالب لن يستطيع أن يمنع ابن أخيه ، إذا فارت الفورة ، وأن بنى هاشم وبنى المطلب ، لن يقدروا على الوقوف فى وجه قريش ، إذا أجمعت رأيها ، على مناوأتهم وهى لا بد فاعلة ، وشرر الحرب يوشك أن يصير لهيباً .

وما تجلت قوة امرىء وثباته كما تجلت قوة خديجة وثباتها ، فى هذه الفترة الدقيقة من حياة المسلمين . فحسب المؤمن ، أن يذكرها أو يراها ، حتى يقبس من عزمها وجلدها ورباطة جأشها ، بل وحسبه أن يلجأ اليها ، حتى ترفأ دمعه ، وتهون أمره ، وتعيد اليه طمأنينة نفسه ، كانت تشاهد محنة المسلمين تزداد ، فلا ينسيها جزعها عليهم ، أمومتها العظيمة لهم ، تواسى الحزين ، وتعين المحتاج ، وتأخذ بيد الضعيف وتشترى العبد المسلم ، أو الأمة المسلمة ، لتعتقها وتخلصها من العذاب .

ولما علمت أن رسول الله ، أمر أصحابه بالهجرة ، تنفست الصعداء ، فان بها ملكا لا يظلم أحد عنده ، وهى أرض صدق ، فليخرجوا اليها مخافة الفتنة ، وفراراً الى الله عز وجل بدينهم ،

ويقيموا فيها حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه .

وفيما هم ، يتأهبون للرحيـــل ، سارعت خديجة اليهم ، تشجعهم ، وتهون عليهم ، فراق الأهل والوطن ، وتعينهم بالمال ، وتفتح لهم خزائن غلاتها ، يتزودون منها ، بما يحتاجون اليـــه فى سفرهم .

وكان أول الذين خرجوا ، عثمان ورقية ، فجهزتهما ، بما يحتاجان اليه . وغالبت أمومتها ، وكتمت حزنها على فراق ابنتها . ولم لا ؟ أليست رقية ابنة رسول الله مثلا يحتذيه المسلمون فى الصبر والجلد ، واحتمال المكاره فى سبيل نشر الدعوة وتثبيتها ؟ ..

ولم تنقطع أم المؤمنين ، عن الدعاء لهؤلاء المهاجرين ، وفيهم ابنتها وابن أخيها الزبير بن العوام ، وقد تسللوا سرا حتى انتهوا الى الشعيبة ، منهم الراكب . ومنهم الماشى ، ووفقهم الله ساعة جاءوا ، سفينتين للتجار ، حملوهم فيها بنصف دينار .

ودخلت أسماء ، بنت أبى بكر على أبيها وهو مع رسول الله ، صلى الله عليـه وسلم ، بالغار تحمل الطعام اليهما ، فسألها النبى : ما فعل عثمان ورقية ؟

فقالت : قد سارا . فالتفت الى أبى بكر وقال :

والذى نفسى بيده انه أول من هاجر بعد ابراهيم ولوط.

وأفاقت قريش وعامت بنبأ هؤلاء الذين خلصت أبدانهم وأرواحهم من الطغيان والبغى، فخرجوا يقتفون آثارهم، حتى بلغوا البحر، فلم يدركوا منهم أحداً، وعادوا أدراجهم وقد أخذ منهم الغضب كل مأخذ، وعقدوا العزم على التنكيل بمن بقى مع رسول الله من المسلمين بمكة.

وأيقنت خديجة أن قريشاً، لم تعد تحفل كثيراً بأبى طالب، ولا ببنى هاشم، ولا ببنى المطلب، وأنها ستتجرأ على النبى، بعد ان كان أذاها قاصراً على غيره. وهى اذا فعلت، فسوف يتكرر تعرضها له، وإيذاؤها إياه.

ووقع ما كانت تخشى، فقد اجتمع أشرافهم، يوماً فى الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: مارأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتها، لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

وبيناهم كذلك إذ طلع رسول الله، فأقبل يمشى، حتى استلم

الركن ، ثم مرَّ بهم طائفا بالبيت ، فلما مرَّ بهم ، غمزوه ببعض القول ، ثم مضى .

ولما مرَّ بهم الثانية ، غمزوه بمثلها ، ثم مرَّ بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها ، فوقف وقال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح .

أخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، وحتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ، ليرفأ بأحسن ما يجد من الكلام فيقول :

انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فوالله ما كنت جهولا !

وإذ كان الغد اجتمعوا فى الحجر فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى اذا باداكم ما تكرهون ، تركتموه .

فبينما هم كذلك ، إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا . لما يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فيقول رسول الله : نعم . . أنا الذى أقول كذلك .

وهنا أخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، ولوَّاه في عنقه ، وخنقه

خنقا شديدا ، فقام أبو بكر الصديق ، فوضع يده على منكبه ، فدفعه عن رسول الله ، وقال وهو يبكى : يا قوم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله

أما وقد حدث من القوم هذا الذى رأت وسمعت ، فلن يقف كيدهم عند الغمز ، واللمز ، والتعرض ، والملاومة .. ولكنهم سيحتالون على قتله : ما فى ذلك شك .

وليس أدل على قلقها من أنها خرجت يوما تلتمس رسول الله بأعلى مكة ، ومعها غداوة ، فلقيها جبريل فى صورة رجل ، فسألها عن النبى ، فهابته ، وخشيت أن يكون بعض من يريد أن يقتله ، فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها :

هو جبريل وقد أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، وهو يبشرك ببيت من قصب[1] لا صخب فيه ولا نصب .

## ١١

ترى ماذا كان من موقف آل خديجة زوج النبى بأزاء هذه الدعوة الجديدة التى جاء بها صهرهم ؟ وماذا كان موقف خديجة

---

(١) قصب : الذهب

منهم ؟ كان آل خديجة كسائر العرب ، منهم من عبد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، يتعصب لها ويبغض من يسبها، ومنهم من كره عبادة الأوثان فانضم الى هذا الفريق أو ذاك من أهل الكتاب .

ولما أصهر اليهم محمد فرحوا بهذه المصاهرة لعلمهم بأخلاقه ونسبه ، وكان له منهم أصدقاء يحبهم ويحبونه . وكانت داره أو دار خديجة مفتحة الأبواب لهم ، يجدون فى ربتها الأم والأخت جميعا ، تعطف عليهم وتبرهم ، ويعطفون هم على أولادها .

ولما بعث محمد بدين الحق وأمره الله بالدعوة اليه ، كان موقف أهل زوجه منه كموقف قريش ، فيهم من اتبعه ، وهم الأقلون ، وفيهم من ظل على صداقته للنبي ، وإن لم يدخل فى الدين الجديد ، وفيهم من ناهضه ، فكان حربا على الإسلام والمسلمين.

وكان ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة ، ممن كرهوا الأوثان وطلبوا الدين فى الآفاق وقرأوا الكتب ، فاهتدى الى النصرانية آخر الأمر ، واتخذها له دينا . وكان يرجو أن ينصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن يجاهد معه وأن يحتمل أذى قريش وإياه ، ولكنه مات — على المشهور — قبل ان يدعو

رسول الله الى الاسـلام . وكان النبي يحبه ويقدره ويكره أن يسب أمامه ، فقد ساب أخ لورقة رجلا ، فتناول الرجل ورقة فسبه . فبلغ النبي ذلك ، فنهى عن سبه . وكانت خديجة تجل ابن عمها وتستنصحه ، في كل ما يعن لها ، وكانت تتمنى أن يعيش ، فيتم الله سبحانه وتعالى نعمته عليـه بالاسلام ، وقد سألت النبي عنه فقال: قد رأيته فرأيت عليه ثيابا بيضاء، فأحسبه لو كان من أهل النار ، لم تكن عليه ثياب بيض .

أما أبناء خديجة من زوجيها السابقين فقد أسلموا جميعا ، أسلم هالة وكانت له صحبة ، وهند رباه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان وصافا فصيحاً بليغاً ، وصف الرسول فأحسن وصفه ، وهو القائل : أنا أكرم الناس أبا وأما وأخا وأختا ، أبي رسـول الله ، وأمي خديجة ، وأخي القاسم ، وأختي فاطمة . وأسلمت أختهما هند وتزوجت ابن عمها صيفي المخزومي ، وكان أبناؤها يقال لهم بنو الطاهرة لمكان خديجة .

وكان أصغر من اتبع الرسـول من آل خويلد ، الزبير ابن العوام ، فقد أسلم وله اثنتا عشرة سـنة ، وقيل ثمان سنين ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويؤثره ، وهو الذي قال عنه :

« إن لكل نبى حواريا ، وحوارى الزبير »

ومن عجب أن يسلم الأسود مع أن أباه نوفل وهو أخ خديجة ، كان شديداً على المسلمين ، وقد فر الأسود بدينه فيما بعد من المشركين عامة ومن أبيه خاصة ، وهاجر مع من هاجر إلى الحبشة .

وأسلم خالد ابن أخيها الثالث حزام وطلب أرض الحبشة هو الآخر فمات فى الطريق قبل أن يبلغها ، وقد قال عنه الزبير ابن عمه : كنت أتوقع خروجه وأنتظر قدومه ، وأنا بأرض الحبشة ، فما أحزننى شىء ، كما أحزنتنى وفاته حين بلغتنى ، لأنه كان من أسد بن عبد العزى ، ولم يكن قد بقى منهم معى بأرض الحبشة أحد .

وكانت خديجة تسمع باسلام أولاد أخوتها هؤلاء واحدا بعد واحد فتسر له وتغتبط به ، أن شرح الله صدورهم بالاسلام ، فكانوا عوناً للرسول على عدوه . لقد كانت تبرهم وتصلهم لقربهم منها ، فلما أسلموا ازدادت عليهم عطفاً ، وازدادوا منها قرباً ، وكانت تدعو الله أن يهدى سائر أهلها لا طلبا لنصرهم زوجها فحسب ، بل ورغبة فى هدايتهم الى الحق أيضا ، وما كان يسيئها شىء أبلغ من بقاء بعض أخوتها وغيرهم من ذوى قرباها

على عبادة الأوثان ، ومناوأتهم الرسول وتحريضهم عليه .

وممن استجابوا لداعى المصاهرة والقرابة وان لم يستجيبوا لداعى الدين ، هالة أخت خديجة ، لم تسلم أول ظهور الاسلام ، ولكنها لم تجف أختها ، ولم تخاصم الرسول ، وكان ابنها أبو العاص من رجالات مكة مالا وأمانة وتجارة : ومن المؤاخين لرسول الله ، يكثر غشاؤه فى منزله ، فزوجه زينب كبرى بناته . وكان النبى يثنى عليه ويقول عنه : ما ذممنا صهر أبى العاص . بيد أن اسلامه قد تأخر وسبقته زوجه اليه ، وإن ظل محتفظا مع ذلك بولائه للنبى .

ولم يلب حكيم بن حزام أخى خديجة الدعوة الى الاسلام عندما أنذر الرسول عشيرته الأقربين ، وهو الذى كان من سادات قريش ومن العلماء بأنسابها وأخبارها ، ومن الذين انتهى اليهم الرفادة ودار الندوة ، وكان صديقاً لمحمد منذ الصبا ، زامله في حرب الفجار ، ولكنه مع توقفه عن الاسلام ، ظاهر الرسول وصحبته على المشركين ، استجابة لدواعى الشفقة والصداقة والمصاهرة جميعاً .

وخديجة لتذكر زوج عمتها أبا قيس بن الأسلت الأوسى ،

الذى كان يحب قريشاً وكان لهم صهراً ، عنده عمتها أرنب ، وكان يقيم فى قريش السنين الطوال بامرأته ، وله شعر يعظم فيه الحرمات ، وينهى قريشا عن الحرب ، ويأمرهم بكف أذاهم عن رسول الله .

وكانت خديجة تتساءل لماذا توقف هؤلاء عن الاسلام وهم على ما فطروا من رقة الشمائل وسماحة النفس ؟ أهو انسياق مع الجماعة فيما درجت عليه لا تستطيع عنه حولا ؟ أم هو مخافة ما قد يلحقهم من العار وسوء الأحدوثة ؟ أم هو الكبرياء الذى جبل العربى عليه ، يدفعه إلى عدم الانقياد الا بعد مقاومة من النفس ، تقصر أو تطول !! . .

أما هبار حفيد المطلب عم خديجة فقد كان رجلا سبابا ، لسنا ، شديد الوطأة على المسلمين . ظل يعمه فى جهالته ، أمداً ليس بالقصير ، يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن أصبتم هبار فاجعلوه بين حزمتين وحرقوه .

وقد استفحل أمر أخيها نوفل حتى أصبح من شياطين قريش ، سريع البادرة ، بطاشا كما كان فى صباه ، لجاجا فى خصومته ، قليل الحظ من الرشاد ، يفتن فى تعذيب المسلمين .

فهو الذى امتحن الله سبحانه وتعالى به الزبير عندما وليه بعد وفاة أبيه العوام ، فكان يعلقه فى حصير ، ويدخن عليه ، ليرجع الى الكفر ، فيقول الزبير : لا أكفر أبداً ، وهو الذى قرن بين أبى بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما ، فى حبل حين أسلما ، وسميا لذلك القرينين . وليس من شك فى أن خديجة كانت ترى فعال أخيها فتستنكرها ، وتضيق بها . ماذا لو اتبع زوجها وأسلم ، فرضى الله عنه ، كما رضى عن غيره من أصحاب الرسول ! . . وماذا لو احترم أخوته لها ، فكف أذاه عن صهره ، وعن أصحابه ! . .

واستمر نوفل على شقاوته حتى اذا ماتت أخته لج فى خصومته ، فدعى الرسول عليه بقوله : اللهم اكفنى نوفل ابن خويلد ، فأسره جبار بن صخر يوم بدر ، ولقيه علىّ فعرف أن حينه قد حان ، فأخذ يذكر عليا ، باخوته لخديجة ويستنجد بذكراها ويطلب الأمان باسمها ، ولكن عليا كان قد عرف بوطأته على المسلمين ، وبدعاء النبى عليه ، فقتله . فقال عليه السلام عند ما بلغه مصرعه : الحمد لله الذى أجاب دعوتى فيه .

وكانت خديجة تدعو الله فى السر والعلانية ، أن يثبت

المؤمنين من أهلها على إيمانهم وأن يهدى المشركين منهم ، وهى تعلم عائدة زوجها ، وصلته وصفحه ، والاسلام يجبُّ ما قبله

## ١٢

خفف الله من روع خديجة وزاد من طمأنينة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم أن قيض له واحدا من أقرب الأقربين اليه ، هو حمزة عمه ، وأخوه فى الرضاع ، وهو إلى هذا ، أعز قريش ، وأشدها شكيمة .

وما كان أسعدها ، عند ما أنبأها رسول الله ، بأن أبا جهل مرّ عليه ، وهو جالس عند الصفا ، فآذاه وشتمه ونال منه بعض ماينكره من العيب لدينه والتضعيف له ، فلم يكلمه رسول الله ، ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها ، فوق الصفا ، تسمع ذلك ، ولم يلبث حمزة أن أقبل متوشحا قوسه ، راجعا من قنص له . فلما مر بالمولاة ، أخبرته بما كان ، فاحتمل حمزة الغضب وخرج سريعا لا يقف على أحد كما كان يصنع ، معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يقع به . فلما دخل المسجد ، نظر اليه جالسا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه به فشجه وقال :

أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ، فردّ ذلك عليّ إن استطعت .

ولما أبصرت خديجة رسول أشراف قريش ، يطلب النبي علمت أنه سوف يسرع اليهم ، لأنه كان عليهم حريصا ، يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، وأشرق وجهها ، بنور الأمل إذ ظنت أن قد بدا لهم فيما دعاهم اليه رسول الله بداء ، وأن القلق والاضطراب والخوف سينقشع من النفوس ، وأن الفرقة والانقسام سيذهبان وشيكا ، وأن الأمن والوئام واجتماع الكلمة ستسود الربوع جميعاً .

ولكنها ما لبثت ، أن رأت النبي صلى الله عليه وسلم ، يعود اليها حزيناً أسفا . أخذ يقص عليها كيف قدم على هؤلاء الأشراف ، من كل قبيلة ، وقد اجتمعوا عند ظهر الكعبة ، فقالوا له : يا محمد ، إنا بعثنا اليك لنكلمك ، وإنا والله ، ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ، مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبثت بالدين ، وسببت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته ، فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث ، تطلب مالا ،

جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت،
إنما تطلب الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد
به ملكا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا[1]،
بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

واسترسل يروي لها، كيف أجابهم بقوله:

ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم،
ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ولكن الله. بعثنى اليكم
رسولا، وأنزل على كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا
ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا
منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه
علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم..

وأخبرها كيف كانوا يحاجونه ويطلبون اليه المستحيل
تعنتا منهم وكيدا.

خاب أملها وعادت مخاوفها، وهذه قريش لم تجتمع إلا على
شر، تبيته لرسول الله، وأنها ما استقدمته، إلا لتعذر فيه أمام

---

(١) الرئى: التابع من الجن

بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وأيقنت أنهم قد أهدروا دمه ، ولن يسكتوا عنه ، حتى يقتلوه .

وصدق ظنها فهذا أبو جهل ، قد عاهد قريشا على أن يجلس إلى رسول الله بحجر لا يطيق حمله ، حتى إذا سجد فى صلاته ، فضخ به رأسه ، وأنه لن يعبأ ببنى عبد مناف ؛ فلما سجد رسول الله ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه ، رجع منهزما ممتقعا لونه ، رحمة من الله وفضله .

وها هم قريش اشتد مكرهم ؛ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهموا بقتله ، وعرضوا على رهطه ، ديته حتى يقتلوه ، ولكن رهطه أبوا ، لحماه الله بهم ؛ فوقفوا دونه يمنعونه أو يهلكوا معه .

ولم ترتب خديجة لحظة ، فى أن الله سبحانه وتعالى سوف يتم نوره ، ولو كره الكافرون . وسرعان ما أسلم عمر بن الخطاب ، المنيع الجلد الجليد ، الذى لا يرام ما وراء ظهره . فلم يعد للخوف من نفسها موضع ؛ فبه وبحمده عاز المسلمون قريشا ، وعزّوا فى أنفسهم ، وانتصفوا من عدوهم .

وما كان المسلمون يستطيعون الصلاة فى الكعبة ، حتى

أسلم عمر ، فلما أسلم ، قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة ، وصلى المسلمون معه .

ورأت قريش أن أصحاب رسول الله ، قد نزلوا بلدا ، أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشي قد منع من لجأ اليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ، وجعل الاسلام يفشو فى القبائل ، فاجتمعوا وائتمروا ، أن يكتبوا كتابا ، يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا يصاهروهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يخالطوهم ، ولا يقبلوا منهم صلحا أبدا ، ولا تأخذهم بهم رأفة ، حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل ، وكتبوا هذا كل فى صحيفة ، وعلقوها فى جوف الكعبة ، توكيدا على أنفسهم .

وانحاز بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، مؤمنهم وكافرهم إلى أبى طالب ، فدخلوا معه فى شعب من شعاب الجبل خارج مكة ، وانتقلت خديجة وأهل بيتها إلى تلك الشعب راضية مرضية هادئة النفس وأقامت معهم ما أقاموا .

أما أبو لهب بن عبد المطلب الهاشمى ، فقد كان حقده على رسول الله وأهله ، أعظم من ولائه لقبيله ، وكانت استجابته

لزوجه أم جميل الأموية ، أقوي من استجابته لجماعته ، فخرج
على بنى هاشم ، وانحاز إلى قريش ، يظاهرهم على قومه ،
وينصرهم على أبناء عمومته ، وكان يفاخر بذلك ، ويجد من يمدحه
عليه ، وكانت العير إذا قدمت مكة ، وأتى أحد الهاشميين السوق ،
ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب فيقول : يامعشر
التجار ، غالوا على أصحاب محمد ، حتى لا يدركوا معكم شيئا ،
فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى فأنا ضامن أن لا خسار عليكم .
فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع إلى أطفاله ،
وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يديه شيء يطعمهم به ؛
ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس.

وأقام بنو هاشم فى الشعب محصورين مضيقا عليهم أشد
التضييق ، وقد قطعت قريش عنهم الميرة والمادة ، فكانوا لا يخرجون
إلا من موسم إلى موسم حتى جهدوا جوعا وعريا ، ونال منهم
الاعياء ، واشتد الضر وسمعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب

على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت
قريش ، وهم منهم ، وإخوانهم ، وأبناء عمومتهم ، جعل كثيرين ،
يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة .. فلولا أن كان من

أهل مكة رجال، لهم على المسلمين عطف، يحملون إليهم الطعام فى الشعب، الذين احتموا بها، لهلكوا جوعا.

وكانت خديجة فى الشعب كعهدها دائما أبدا، مثلا رائعة للصبر، واحتمال المكاره، والمواساة، مع أنها قد نيفت على الستين، وكانت لرسول الله السند والمعين، بما توليه إياه من حبها وبرها، ومن رقة نفسها وطهارة قلبها، وقوة إيمانها. كانت تهوّن عليه وعلى المسلمين كل شدة، وتزيل عن نفوسهم كل خشية، وكانت لهم ملك رحمة، يرون فيها من معالم الرضا والطمأنينة، ما يزيدهم ثقة بأنفسهم وإيمانا بالله.

وكان بعض أقارب خديجة يحتالون فى ايصال الطعام لها والمسلمين فى غفلة من قريش، وكان أشدهم اقبالا على هذا العمل، حكيم ابن أخيها حزام، ولم يكن قد أسلم.

وروى أن أبا جهل رأى ذات يوم حكيما ومعه غلام يحمل قمحا، يريد به عمته خديجة، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم. والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك عليه. فجاء أبو البخترى بن هشام فقال: مالك وله؟ قال: يحمل الطعام إلى بنى هاشم. فقال له أبو البخترى: طعام لعمته عنده بعثت

إليه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلِّ سبيل الرجل . فأبى أبو جهل ، حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البخترى ، لحى بعير فشجه ، ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزة قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك المسلمين ، فيشمتوا بهم ويعرفوا أن القوم قد انقسموا على أنفسهم .

وانفقت خديجة مالها كله ، وأنفق أبو طالب ماله وكاد التلف يودى ببنى هاشم وبنى المطلب ، فأطلع الله ، سبحانه وتعالى ، رسوله ، على أمر صحيفتهم ، وأن الأرضة ، قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم ، وبقى ما كان فيها من ذكر الله . فذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك إلى خديجة فقالت : ما يمنعك أن تذكره إلى أبى طالب ؟

وخرج أبو طالب إلى كفار قريش وقال : إن ابن أخى قد أخبرنى ، ولم يكن يكذبنى قط ، أن الله عز وجل ، قد سلط على صحيفتكم الأرضة ، فلحست ما كان فيها ، من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، و بقى فيها كل ما ذكر به الله . فان كان ابن أخى ، صادقا نزعتم عن سوء رأيكم ، وإن كان كاذبا ، دفعته إليكم ، فقتلتموه أو استحييتموه .

قالوا : قد أنصفتنا . وأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فاذا هى ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسقط فى أيديهم ، ونكسوا على رءوسهم . فقال أبو طالب : علام نحبس ونحصد وقد بان الأمر ؟

ثم دخل هو وأصحابه بين أستار الكعبة فقال : اللهم انصرنا ممن ظلمنا ، وقطع أرحامنا ، واستحل ما يحرم الله منا .

وانصرفوا إلى الشعب ، فتلاوم رجال من قريش ، على ماصنعوا ببنى هاشم ، ولبسوا السلاح ، ثم خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم .

## ١٣

خرج بنو هاشم ، وبنو المطلب ، من الشعب ، بعد أن لبثوا فيها ثلاث سنين أو مايقرب منها ، وقد بدت أمارات الجهد على رجالهم ، والاعياء على نسائهم ، والهزال على أطفالهم . خرجوا يتحاملون ، وان احتفظوا جميعا بقوة نفوسهم ، ورباطة جأشهم .

وعادت خديجة إلى دارها ، وهي تغالب ما انتابها فى الشعب

من وهن ، وانصرفت بناتها وخدمها واتباعها ، إلى اعداد الدار التى شهدت شبابها ، وأخذت تهيء الغرفة ، التى عاشت فيها مع محمد ، خمسا وعشرين سنة ، لم تذكر أنه قد دب فيها بينهما خلاف ، والغرفة التى شبت فيها بناتها ، فكن لأمهن العون ، ولأبيهن السلوى ، والغرفة التى كان محمد ، يعتزل الناس فيها ويستقبل الوحي ، ويقوم الليل كله ، لا ينقص منه إلا قليلا ، والعلية ، التى كانت تشرف فيها على الرائحين والغادين ، والتى رأت منها محمدا وغلامها ميسره ، عند أوبتها ، بتجارتها فى تلك الأيام الغر الميامين .

ودبت الحياة مرة أخرى فى جنبات هـذه الدار المقدسة ، يزورها الأهل والأقرباء ، ويلوذ بهـا المحتاجون والضعفاء ، وخديجة التى أشرفت على الخامسة والستين ، دائبة الحركة دائبة العمل ، لا تدخر الذماء من قوتها ، كما لم تدخره من مالها .

وعاد محمد ينشر دعوته ، على أهل مكة ومن يفد عليها فى الموسم ، فذاع أمره ، بين قبائل العرب جميعا ، وكثر اتباعه ، ومع هذا كله لم يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولم يستطع هو ، لهم منعا .

واشتكى أبو طالب ، وقد نيف على الثمانين ، وقعدت به الشيخوخة ، وبلغ قريش ثقله ، فقال بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وفشا أمر محمد ، فى قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا .

ومشوا إلى أبى طالب فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث تعلم ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وأنت تعلم الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه نخذ له منا ، وخذ لنا منه ، ليكف عنا ، ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه .

وبعث اليه أبو طالب ، فجاءه ، فقال : يا ابن أخى . هؤلاء أشراف قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك ، فعرض رسول الله عليهم الاسلام ، فأبوا مستكبرين ، ومضوا مستهزئين .

وأفضى رسول الله ، بما دار بينه وبينهم إلى خديجة صاحبة مشورته ، فعجبت من هؤلاء القوم ، يدعون إلى الحق ، فتوصد قلوبهم دونه ، وأدركت أنهم لن يسكتوا عن أذى المسلمين وعن أذى النبى نفسه ، حتى يقضى الله بأمره . وها هو أبو طالب ،

الذى كانت قريش تهابه وتوقره ، وكان بنو هاشم وبنو المطلب يلبون نداءه ، ويأتمرون بأمره ، يلفظ أنفاسه . فمن ذا يمنع النبى ، ومن ذا يجمع الرهط حوله ؟ . .

وهلك أبو طالب ، وهو الذى كان له عضداً وحرزاً فى أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ، ولو لا مخافة السبة على أبنائه من بعده ، ومظنة الخوف من الموت ، لنطق بالشهادتين .

وبهلاكه اشتد أذى قريش للنبى ، ونالت منه ما لم تكن تطمع به ، فى حياة أبى طالب حتى ليقول : ما نالت منى قريش شيئا أكرهه ، حتى مات أبو طالب .

وما كادت دموع رسول الله تجف على عمه ، حتى فوجىء بوفاة زوجه خديجة[(١)] ، فزادت وحشته ، ووجد عليها حتى خشى عليه ؛ فقد كانت له أما ، تسكن روعه ، وتهون أمره ، وزوجا يسكن اليها ويأنس بها ، ووزير صدق يطلب عنده النصيحة الناضجة والرأى السديد .

ودفنت خديجة ، أم المؤمنين فى مقابر المعالاة بالحجون ،

---

(١) هذا هو المشهور وان ورد فى كتاب ابن الأثير أن خديجة ماتت قبل أبى طالب (ج ٢ ص ٣٤ ) طبعة القاهرة .

فى الشمال الشرقى من مكة ، ونزل النبى صلى الله عليه وسلم فى حفرتها ، ولم تكن صلاة الجنائز قد شرعت .

وروع المصاب بناتها ، ولولا أن رسول الله أخذ يكفكف من عبراتهن ، ويسكن من زفراتهن ، لأتلفتهن الفجيعة ، وقضى عليهن الحزن . أما المسلمون فقد كان كل واحد منهم ، يرى المصاب مصابه ، فقد كانت أم المؤمنين جميعا ، ليس فيهم من لم يشمله برها أو يظله إيمانها ، كانت تقوى من عزيمتهم ، فى حين كان أبو طالب يعمل جهده على حمايتهم .

* **

عاشت خديجة مع النبى خمسا وعشرين سنة لم يتزوج عليها قط ، بل ولم يتزوج بعدها لمجرد الزواج ، وانما تزوج جبراً لـكسر تدفع اليـه النخوة ، وتوثيقا لرابطة خاصة أو عامة ، وتوهينا لخصومة ، طالما آذت المسلمين ، وحدت من انتشار الاسلام .

وكان النبى لا يكاد يخرج من البيت فى يوم من الأيام ، إلا ذكرها ، وأحسن الثناء عليها ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها « ما غرت على امرأة للنبى قط ، ما غرت على خديجة وما رأيتها ، ولقد هلكت قبل أن يتزوجنى بثلاث سنين ، لما كنت

أسمعه يذكرها » وصارحت النبى صلى الله عليه وسلم مرة . وقد أخذتها الغيرة على خديجة « ما كانت إلا عجوزا أبدلك الله خيرا منها » فغضب رسول الله وقال : « لا والله ، ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء . »

واستأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاع لذلك ، فقال « اللهم هالة ! » قالت عائشة : فادركنى ما يدرك النساء من الغيرة ، وقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها ، قالت فتغير وجه رسول الله ، لم أره ، تغير عند شىء قط ، إلا عند نزول الوحى ، أو عند المخيلة حتى يعلم أرحمة أو عذاب .

وكان النبى إذا ذبح الشاة يقول : « ارسلوا الى أصدقاء خديجة » قالت عائشة : « فذكرت له ذلك يوما » فقال : « إنى لأحب حبيبها » .

ولما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم وكان أبو العاص وهو ابن هالة ، أخت خديجة منهم ، بعثت زوجه ، زينب بنت رسول الله

إلى أبيها تقول : « إنه أبو العاص ، إن قرب فابن عم ، وإن بعد فأبو ولد ، وإني قد أجرته » . وبعثت اليه كذلك بقلادة لها ، كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص : فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه القلادة ، رق لها رقة شديدة ، وذكر خديجة فقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوه عليها فافعلوا » .

ولم ينس النبي قط خديجة « الولود الودود » خديجة « ربة البيت وأم العيال » كان يصل صدائقها ويبر خلائلها ، لا يفتأ يذكرها ويذكر آثارها ، وقد عاشت معه في بناتها .

روى أن رسول الله خط في الأرض أربعة خطوط قال : أتدرون ما هذا ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم .

فقال رسول الله : أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران .

١٤

كانت خديجة من محمد بمثابة الأم والصديق والزوج جميعا ، آمنت به إذ كفر الناس ، وواسته بمالها إذ حرمه الناس ، وحضنته

النصح عند ما انبلج الوحى عليـــــه ، واحتملت وإياه أذى المشركين ، فلا عجب أن تكون فجيعته فيها ، أعظم من فجيعة أى امرىء فى زوجه ، لم يهون عليه إلا صبر الأنبياء ، ولم يسر عنه فيها إلا بناته منها ، والآن وقد ماتت زوجه البرة ولم يبق له منها إلا بناته الأربع ، فقد اشتد اعتمادهن عليه ، وزاد حدبه عليهن .

وكانت رقية بارعة الحسن كثيرة الشبه بأمها ، تذكر النبي بخديجة ، فى لفظها وإشارتها ، وقد زوجها من عتبة بن أبى لهب قبل النبوة ، فلما بعثه الله بالدين الحق ، فارقها عتبة ، فتزوجها عثمان بن عفان ، وكان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يرجو أن يكون له منها حفدة ، ولـكنها أسقطت سقطا ثم ولدت بعـد ذلك غلاما أسمته باسم أخيها الراحل عبد الله ، وبه كان يكنى عثمان ، ولـكن ديكا نقره فمات ، ولم تلد بعد ذلك .

وأصيبت رقية بالحصبة ، فتخلف عثمان وأسامة ابن زيد عن بدر ، وبينما كان زيد بن حارثة على ناقة رسـول الله الجدعاء ، يهب الأرض الى المدينة مبشراً بقتل المشركين فى هـذا اليوم الحاسم ، كان عثمان يدفن زوجه ، وبكت النساء رقية ، فجعل عمر بن الخطاب يضربهن فقال النبي : مهما يكن من العين ومن

القلب ، فمن الله والرحمة ؛ ومهما يكن من اليد واللسان ، فمن الشيطان . فقعدت فاطمة على شفير القبر تبكى أختها فجعل النبى يمسح عن عينها بطرف ثوبه : ولعله كان يواسى نفسه بمواساة فاطمة ، فقد كان مصابه فى رقية مصابين ، مصابه فى فلذة من فلذاته ، ومصابه فى خديجة يعاوده بوفاة أشبه بناته بها .

وكانت زينب كبرى بناته ، ولدت قبل البعثة بأمد ليس بالقصير ، أسلمت ولم يسلم زوجها ، ووقفت وأبوها فى جانب ، ووقف زوجها في جانب آخر ، كانت برة بأبيها ، وفية لزوجها ، على اختلاف ما بينهما من دين ، وهاجرت إلى المدينة وفى الطريق نخسها هبار وكانت حاملا فأسقطت ، وبلغ من وفائها لزوجها أنها لما علمت بأنه أسر فى بدر ، وقدم أخوه عمرو فى فدائه أجارته ، ولما أسر الثانيـة ، فى سرية زيد بن حارثة أجارته ، أيضـا وسألت رسول الله أن يرد عليـه ما أخذ منه ؛ ثم أسلم وردت عليه زوجه .

وتوفيت زينب فى السنة الثانيـة لهجرة الرسول ، وقد نيفت على الثلاثين ، فبكى فيها أبوها ، ما ورثته عن أمها خديجة من وفاء ، وبلغ من حبه ابنتها أمامة التى عاشت بعـدها أنه كان

يحملها على عاتقه وهو يصلى ، فاذا سجد وضعها ، واذا قام حملها . وروت عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ، أهديت له هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لأدفعنها إلى أحب أهلى الىَّ . فقالت النساء : ذهبت بها بنت أبى قحافة ( أى عائشة ) . فدعا رسول الله ، أمامة ، فاعلقها فى عنقها .

وكانت حياة أم كلثوم كحياة رقية ، هاجرت الى المدينة لما هاجر النبى مع فاطمة وغيرها من عياله . وتزوجها عثمان بعد موت أختها رقية وعلى مثل صداقها ، ولم تنجب له ولدا ولا بنتا ، وتوفيت سنة تسع ، ووقف النبى على قبرها وعيناه تدمعان ، وهو يرى بناته تموت الواحدة منهن بعد الأخرى ، وقد نيف على الستين ، لا أمل له فى عقب ، فيبكيهن ويبكى أمهن خديجة التى كان له منها الولد دون غيرها من أزواجه .

وكانت فاطمة أصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، وأحبهن اليه ، وأشبههن به ، وقال رسول الله : إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما أذاها . ويريبنى ما رابها . وقال لها : إن الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك .

وزوجها أبوها ، إلى أقرب الناس اليه ، إلى ابن عمه على

ابن أبي طالب ، وقد روى أنه كان بين على وفاطمة كلام ، فدخل
رسول الله ، فلم يزل حتى أصلح بينهما ، ثم خرج ، فقيل ، دخلت
وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك . فقال :
وما يمنعنى ، وقد أصلحت بين أحب اثنين الىَّ . !

ولما مرض النبى صلى الله عليه وسلم مرضه الأخير . أقبلت
فاطمة ، وكان مشيها مشى أبيها ، فقال : مرحبا بابنتى ، ثم أجلسها
عن يمينه ، ولحق بالرفيق الأعلى .

وامتدت حياة رسول الله فى حفيديه من فاطمة الحسن
والحسين ، فكان لهما ولذريتهما ، ولمن انتسب اليهما ، شأن عظيم ،
فيما مر على العالم الاسلامى كله من أحداث جسام .

# بعض المراجع


١ — أبو عبد الله محمد بن سعد : الطبقات الكبرى

٢ — أبو محمد عبد الملك بن هشام : سيرة النبي عليه الصلاة والسلام

٣ — تقي الدين أحمد بن على المقريزى: امتاع الأسماع . . .

٤ — ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز أسماء الصحابة

٥ — ابن جرير الطبرى : تاريخ الأمم والملوك

٦ — ابن الأثير : الكامل

٧ — السيد عبد الحميد الزهراوى : خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها

٨ — الأميرة قدرية حسين : شيرات النساء

٩ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد

١٠ — محمد حسين هيكل باشا : حياة محمد

١١ — « « : فى منزل الوحى



تفضل الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى صاحب المعاجم النفيسة الخاصة بألفاظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة فأطلعنى على كثير من الأحاديث المتعلقة بالسيدة خديجة رضى الله عنها والواردة فى كتب الحديث الصحيحة فله عنى وعن القراء أجزل الشكر ؟ المؤلفة